فصل من رواية

الثلج يشتعل

تأليف ريجيس دوبريه
ترجمة الدكتور سهيل ادريس

كان ذلك في حدائق فندق كبير في ميرامار، ضاحية هافانا . أما اليوم والساعة، فأترك للمنجّمين عناية تحديدهما. وسيجدون في ذلك مشقّة: ذلك أن صُور البروج قاطعتنا منذ البداية. ولقد أجهدت ذاكرتي، فلم أرَ إلاّ بحراً هادئاً يُلامس بلا اقتناع خواصر شُرفةٍ من الرند الزهريّ والنخيل. ولا زلت أسمع قرقرته بين الصخور المتكدسة في المستوى الأدنى من السدّ، عند طرف الجون، تجاه الأحجار القديمة الشقراء لقلعة اسبانية صغيرة. إن هذا الارتداد الموْجيّ اللامبالي يُحدث ضجّة عمقيّة ليس لها عمر. وليس حفيفُ النخيل كذلك بالمؤشّر المناسب. كانت الحياة هنا - بسيطةً وهادئة. ولا بدّ أنها ما تزال كذلك. وستبقى هنا أبداً. لا مباليةً كأشجار جوز الهند، تلك المنافض الريشيّة العملاقة المغروزة من مقابضها في الخضير.

كان قيظ جزر الأنتي ينقعنا في مُلاح تلك الكآبة المضبّبة التي تذوب فيها الأسابيع والشهور من تلقاء نفسها، بدافع الجمود. السنة؟ غير مؤكّدة، هي أيضاً، على صورة تلك الحقبة التي غالباً ما تبدو فيها الكرة الأرضية وهي تتذبذب بين الحُمرة والسواد. تأرجحُ الأمل والكرب الذي كَشَفَ في بضع سنوات، ثم غطى من جديد، تلك القارّة التي أتيتُ منها والتي لن أذهب إليها بعدُ أبداً. لنقل، إذا شئتم، بين مصرع تشي غيفارا ومصرع سالفادور اللندي. إنني أتّخذ أعلى المسلّات صُوىً، ولكن على مضض: فذانك الاسمان اللذان ذاعا مؤخراً في كل مكان لم يكونا لنا رؤوس إعلانات أو فصول. لعلّ بامكانهما بين جميع الموتى الذين يعلّمون دَرْبي بحجارةٍ صغيرة سوداءٍ ذَوَّبها تخريب الزمن، فَغَدتْ غير مرئية للعين المجرّدة التي تكتفي بالمرور أو العبور، لعلّ بامكانهما أن يستوقفا لحظةً أوفرِ الأنظار تعباً.

ليس من اليسير أن يكون لامرىء تاريخٌ خاص حين يعوم على زمنه، تتقاذفه المصادفات، كفلّينة على الماء. والأصعب من ذلك أن يكون له قَدَر، لا سيما إذا كان قصير البصر بعض الشيء، وكانت ذاكرته تشكو ضعفاً في حفظ المواقيت أو الأحاديث المتبادلة عبر الأيام. إن الاستجابة لذلك الملقِّن الذي يهمس في سقوف المسرح تقتضي أذناً مُرهفة وعيناً أوْسيّة ثاقبة. ولقد كنت مسدوداً بأحكام، فلم أرَ تاريخي مقبلاً عليّ، أو أنه، بالأحرى، أقبل عليّ بخطوةٍ ذئبيّة، فكان صديقي راوول القابع إلى جانبي هو الذي حيّاه قبل أن يواصل دربه من غير أن يراني. إن هذا التاريخ يشقّ الشمس مستقيماً أمامه، وعلى كتفه ممسحة اسفنجيّة، وشعره مشدودٌ في رأسيّة سوداء، وهو يرتدي قميصاً مخططاً بالأزرق ذا أهداب معقودة على الخصر. هل أتيح لي وقت للتفكير « هوذا على الأقل تاريخ يعرف إلى أين هو ماضٍ ؟ ».

لقد تعوّدت. إن ملاحظة حضوري من الضعف بحيث أني أنا نفسي لاألاحظه. إنني لم أخلق للأدوار الأولى، بل أنا أمضي في حياتي كيفما اتفق. إن دوري، الشبيه بسكّين ثانية، وبلحظة غامضة، وبنفعٍ قليل النفع أو عديمه، ينحصر في تلقّي شظايا القصص التي تحدث للآخرين. حين يوشك أمرٌ ما فريدٌ بعض الشيء على التحقّق، يحصل انحراف للحَدَث، فينعطف على جاري ولا يصيبني بسوء. ولفرط ما ألامسه وأغازله، يمكن أن يكون لي الحق، كما يخيّل إليّ، ببعض من قَدَر. حاولت كثيراً أن أحبّه، ولكنه لا يحبّني. إن الصاعقة التي بهرتني غالباً، تسقط كلّ مرةٍ إلى جانب.

لم أغازل اميليّ قطّ. بل أنا لم أُول روحاتها وغدواتها كثيراً من الاهتمام. تلك الفتاة الطويلة المتحفّظة الشقراء ذات البُنية الألمانية، لم تكن تحمل نجماً على جبينها. لم تكن برقاً يجلجل

الغيوم - كما هو شأن الشخصيات الروائية تلك التي لا تُحسن إخفاء تمثيلها حين تدخل المسرح. لم تكن شرارة تنبعث من الأنظار التي تتصادم. لقد حاولتُ طويلاً أن أنقّب ليلي، أن أترصّد تلك الحياة الطويلة البيضاء التي لم تحمل لي نصيحة: ولكن بدلاً من أن تفقأ الظل، إذا هيّ ظلّ ينبثق بهدوء من أعماق ضوءٍ ناعم ذي لمساتٍ صغيرة، سالبة. إنني أرى طيفها يرتسم جانبياً، شيئاً فشيئاً، على هالةٍ مزبودة: شمسنا الأولى. لقد عرفنا، هي وأنا، كثيراً من الشموس، من نصف الكرة الأرضية إلى نصفها الآخر. عرفنا جميع أنواع الجنوب: جنوب «المدارات الاستوائية» الثقيل الدبق، وجنوب الأودية الشيليّة المحتدم، المشرّب بالسكّر، في مطلع الربيع، وجنوب السهول الأنْديّة المسنون كأنه من صوّان، وجنوب غابات بافاريا العليا الحامز المُزبد. يا لها من مِزْلقة! كلّما صعد الإنسان، كلما انشحذت الشمس وتخفّفت. وعلى مستوى البحر، في مناخ الجنان السياحيّة، يسبح المرء كأنه يعوم في الزيت.

هل كان «المشتري» في طالَعها؟ لم تكن ايميلا متفقة مع القمر الذي يُمسك الحسابات البيتية، حسابات الطمث ونهايات الشهور، بل كانت تتبع مباشرةً «أنتي» شمس «كاشويا»، أرفع الآلهة «الأنكا». هكذا كان يُسمّى رئيسها الذي هو أوّل من درّبها على خفايا التآمر البسيطة والصارمة، قبل أن يسقط هو نفسه منطفئاً بقذيفة، ذات صباح مثلج من أيلول، في لاباز. كان قَسَمُ ولاءٍ يربطها بالمذكّر الخالد الذي كان قد جرّدها بالمقابل من الحجب والأبجرة الليلية التي تغطّي التقاليد بها نقيضه المؤنث.

إن جمالاً نقيًّا، على ما وُصف القلب، لا يبتعث هذه الضروب المعطّرة من الهيجان، ذلك الزبد المُقلق الذي هو أثر الحوريّات في المياه. من أجل هذا التقينا مرات عديدة من غير أن يرى أحدنا الآخر: هي، لأني عديم اللون، وأنا، لأنها لم تكن لها رائحة. لا سيما وأنها لم تكن تُرى قطّ وهي تعوم بين بابين، أو تتأخّر على المائدة أو تتسكّع كالجميع في بهو الفندق. كانت تجري تحت أنفك، مقذوفةً بمقلاع ما، يحيط بها تركيزُ الشاردين، تلك الهيئة المستَغْرَقة والغائبة في وقت واحد، التي تجبرك على الاحترام ما دامت لا تخصّ إلاّ العشّاق والمكلّفين بمهمّات. ليس لأنها تلجأ إلى تدابير الكبت تلك التي يتخذها سريعاً وجهٌ غربيّ عند اقتراب شخص مجهول، ولكن هناك طريقة للاستعجال تحمي البسمات خيراً من جميع علامات البرودة. كانت تنزلق في الأروقة بوجه خشبيّ ولامبالاة مطّاطة، وعلى نحو عابر يعجز عن تذكيرك في اللحظة المناسبة بأنها كانت جميلة. أو أن الأمر لا يتطلّب كثيراً للإيحاء بهذا الجمال: فهي تملك ذلك الشيء اليسير الذي لا يمكن التعبير عنه، ذلك التقزّح أو الترّعُش الذي يحدّد ما يمكن تسميته امرأة جميلة. من الواضح أن لي أعذاري. لا سيّما أننا لم نكن نعرف أنه كان لها عشيق، ولا علاقة تحزّبية. حين يُسحب فيلمٌ شفّاف، فلا بدّ من انتظار بضع دقائق حتى تتلوّن الصفيحة بمسّ الهواء. أما أنا، فقد احتجتُ إلى بضعة أسابيع لأستطيع فكّ رموز شريكة المستقبل على ملامحها. ومن الصحيح أنها لم تكن تخرج كثيراً من غرفتها.

كنت أتردّد بانتظام إلى ذلك الفندق، خاصة إلى الطابق الذي خَصّصه «الأمن» للرفاق العابرين أو المتخفّين أو غير النظاميين. خليّةٌ حقيقية. في النهار مرقدٌ ذو نخاريب مقطّعة: ولكنه في الليل يأخذ في الطنين بالمؤامرات وخطط المعارك. وقد جئت أزور الرفاق في منظّمتي. أقول «منظمّتي» لأختصر. والواقع أن الأمر كان أكثر تعقيداً. ذلك أن كارلوس، أحد مؤسسي الحركة، الوحيد الذي لا يزال حيًّا في الجانب البوليفي، كان قد تأخّر. كان المفروض أن يصل من أوروبا، وكنتُ أنا قادماً من التشيلي، وكنّا قد تواعدنا على اللقاء هناك، في منتصف الطريق. أكانت قد وصلت أخيراً بعضُ أخباره؟

ذلك اليوم، لم يكتفِ راوول، مسؤول الاتصالات، بأن يجيبني بصوت مرتبك إنه لم يكن قد تلقّى بعدُ شيئاً. وحاول صرفي عن الموضوع:

- هل تعرف ميمي؟

- أعرف واحدة تدعى ميمي بنسون، ولكنها «كليشيه» من بلدي فات أوانها، وهي ليست قابلة للترجمة.

- يا لك من أبله! أنا أكلّمك عن ايميلا... تلك التي تهتّم بالإعلام.

- أتصوّر أنها هنديّة تعتمر قبعة مستديرة وسبع تنانير من قطن.

- لا: بل الشقراء التي التقيناها معاً ذلك اليوم، قرب المسبح.

الذكرى الوحيدة التي عبرت خاطري عندئذ، كانت طيف بطلة للسباحة. ربما ممرضة تحمل شهادة، وعند الاقتضاء واحدة من الجهاز العسكري النسائي. لم تكن تملك هيئة المساعِدات العسكريات، ولم نكن بعدُ «جيشاً»، ثم إن أقدامنا لم تكن بعد مستقرةً كثيراً على «الأرض». ومهما يكن من أمر، فقد كان يبهجني أن تكون واحدةً منا، ولكن اكتشافي لها بهذا التأخير قد غمّني حقاً.

- صحيح؟ ما كنت أظنّ هذا. الحق أنها ليست من طراز هندي على وجه الدقّة.

قال راوول:- لا تظنّ هذا. ليس في بلدي «شوليتاس» فقط بحجم بطاقة البريد. بل إن هناك آريات ذوات عيون زرق. لا تنس أن الجالية الألمانية تركت لها أحفاداً منذ وقت طويل، وأنها لا تختلط...

- من أين هي؟ وعائلتها؟ من يعتني بها، في المنظمة؟ منذ متى؟ متعاطفة أم مناضلة؟

وأمام الاسئلة الخمسين التي كنت سأطرحها، رفع راوول دراعيه إلى السماء:

- إنك تسألني أكثر مما ينبغي، وحتى لو كنت أعرف الأشياء، فلا أستطيع أن أقولها لك. كل ما أعرفه هو أن كارلوس قد دّربها على « الإعلام » وأنها تجيد عملها.

عملٌ جهازيّ. وقد كان قسم « الاعلام » عندنا يتفرَّع إلى قسمين: « إعلام مفتوح »، أي صحافة وإذاعة، من أجل الفرز والتحليل، « تجسُّس »- تسمُّع عند الخصم- لاكتشاف المؤامرات القادمة. نقيض « جبهة الجموع »: عمل خيّاطة تخاريمية، براعة ومقصّ.

وأضاف صديقي:

- أنت تعلم أن ذلك قد أصبح بُنيةً مُمَرْكزة. إنها تتبع مباشرة « للجنة المركزية ».

- سيزداد علمي كل يوم. حتى آخر أيامي.

- بانتظار ذلك، تستطيع أن تساعدها. لا بدّ أنك التقطت أشياء هامة في التشيلي. والحقيقة أنها بسبيل إعداد تحليل للوضع يتخذه الرفاق أساساً للمناقشة. إنهم بذلك يصبحون أوثق اتصالاً بالبلد.

قلت وأنا أنهض:- ولِمَ لا؟

وقد كنت أكون على خطأ لو انزعجت. كان ذلك في الطابق نفسه، الباب الجانبي.

* * *

قدّمت لي الأريكة وجلست ثلاثة أرباع الجلسة أمام طاولتها. مكتب سكرتيرة حقيقي: آلة كاتبة، سلّة للبريد، ملفّات معدنية، دفتر مذكّرات، أقلام مبريّة. الغرفة كلّها مرتّبة ترتيباً مثالياً. على الجدار لوحة لهوشي منه، بالأسلوب الشعبي، وصورتان: تشي غيفارا، وأنتي. بطاقات كثيرة: بوليفيا، التشيلي، الأرجنتين. مخطّطات على قياس كبير، مرسومة باليد، بألوان لبدية. ومن أبواب السطيحة، كان الجون والبحر والسماء تغور في هذا المكتب الرسميّ أكثر مما ينبغي: فكان الانعكاس يجعلني أقي وجهي بيدي، كما لأنظر بعيداً.

ابتسمت لي في الشمس، قريبةً جداً مني، بثياب رئيسة كشّافة: حذاء من مطاط، بنطال أزرق، وفوقه قميص ذو كتفيّة منتفخ الجيوب، من تلك التي يرتديها أفراد الميليشا، ببسمة من تلك البسمات الجاهزة، « صريحة صادقة »، لا توحي إلاّ بالقلق.

- أبلغني راوول أنك واصل لتوّك، وأنك ربما كنت تملك أسراراً هامّة...

اكتشفت سبب ضيقي: هذا « المُراد » الطي يُزعج طبيعتها ولست أدري كيف أصفه. وحين تبتسم يرتسم في زاوية عينيها بعض تغضّن: إنها تلامس الثلاثين.

- كما ترين، أنا عائد لتويّ من التشيلي.

- وكيف يجري الأمر هناك؟

- بين بين، إنهم يُعدّون للانتخابات. وليس الأمر بالسيء بالنسبة لألندي والأصدقاء.

- هاه! السعادة التي يحقّقها صندوق الاقتراع... إنني أتمنى لهم كثيراً من المتعة. هذا، على أي حال، ليس مشكلتنا، أليس كذلك؟

- إنها، مع ذلك، مشكلتنا بعض الشيء. إذا سقطت التشيلي، فلا أرى جيداً ما الذي ستنتهون إليه، ثم إنها المعركة نفسها...

- المعركة؟ صحيح؟

قالتها بلهجة من يقول: ولكن من يحسبون أنفسهم، هؤلاء التشيليين الصغار الملمّعي الشَّعَر؟ ليس في أوساط الطليعيّين أفراطٌ في التواضع، ولكن هذه الغطرسة كانت، في فمها، ناشزة.

- إنهم يقومون بما يستطيعون. فإذا كان ما يستطيعونه قليلاً، فمن هو المسؤول؟

- أخبرني.. لقد كلمتني منذ لحظة بلهجة رسمية. ألستَ بعدُ من المنظمة؟

- زلّة لسان. أعذريني: إنني شارد بعض الشيء.

أرتني رزمةً من قصاصات مدعوكة بعض الشيء كانت مشبوكة على أوراق بيض تحمل كل منها في أعلاها التاريخ والموضوع بحروف كبيرة بنفسجية، وبرقيات وكالات بكمية كبيرة ومناشير.

- أتلقّى بين الفينة والفينة صحف لاباز متأخّرة خمسة عشر يوماً في المتوسّط. أما الاذاعات فمن الصعب التقاطها. ولكن هناك تلكس الوكالات، كل صباح: ليس من شيء مهم بالاجمال.

قلت بلهجة متأدبة جداً وأنا أتصفّح الملفّ السميك:

- إنه عمل ممتاز حقا...

- أين كنت في التشيلي؟

- في كل مكان تقريباً.. لا سيما في الشمال.

- لوقت طويل؟

- لشهرين تقريباً.

- هل رأيت الرفاق؟

- لا، لم يتح لي الوقت ذلك.

لا يمكن أن تقول الحقيقة لمن يستجوبك. سألتني مغتمّةً:

- ولكن ماذا فعلت إذن؟

- سباحة، صيد، حمّامات بحر، ولكنّي أفضّل هنا: فالماء أقل برودة.

بذلتْ جهداً لكي تبتسم: تغضّنت عيناها، ولكنها لم تبتسم من قلبها.

- وأنتِ، ألا تذهبين أبداً إلى شاطىء السباحة؟

- لا مجال لديّ للهو والمزاح. قبل نهاية الأسبوع، عليّ أن أسلّم الرفاق أطروحة. إذا لم تكن تريد مساعدتي، فقلْ لي. سأتدبّر أمري وحدي. ولن تكون هذه المرة الأولى.

- لا تغضبي. بل إن بالإمكان أن نعمل معاً في فرض العطلة الذي ينبغي أن تنجزيه. إذا وجدتِ ذلك مفيداً.

رأيت من اللباقة أن أحول دون خلاف ممكن في التقدير، فدعوتها للهبوط إلى المطعم - غرفة طعامنا في الطابق الأول. وكانت لنا فيه قاعات مخصّصة.

- هل تكفي شطيرة؟ كوب ماء أم عصير فاكهة؟

كان التلفون قد أصبح في يدها لتنادي « خدمة الغرف ».

- ما تُفضّلين.

وهكذا بقينا نمضغ خبزنا اليومي متبّلاً بماء معدني، فيما كنا نكتشف أصدقاء مشتركين في كوشابامبا، وسوكر ولاباز...

واستطردت وهي تقطّب حاجبيها بعد أن ابتلعت لقمتها الأخيرة:

- وإذن؟ إن النظام في الدور الأخير من التحلّل، أليس كذلك؟ إننا لم نشهد من قبل أبداً مثل هذا الوضع الممتاز. هل تقرّني على ذلك؟

- بالنسبة لمن يملكون وسائل قَلْبه، نعم. وفي بوليفيا، لا يعوز اليمين العسكري مثل هذه الوسائل.

- ونحن، هل تظنّ أننا سنشبك أذرعنا؟ سوف ترى. إذا كانت الديكتاتورية ستعود كما من قبل...

- لنبدأ، يا ميمي، برؤية الأشياء مواجهة.

انغمرت كليًّا في تقرير طويل مفصّل عن ريح الوضع، كما استطعت أن أتنشّقها على الحدود. لنتجاوز التفاصيل. لم يسبق لبوليفيا أن أثارت اهتمام أحد في العالم، ولا يملك الأشخاص الرصينون وقتاً يضيعونه في التفاصيل. وأن يقوم جنرالٌ قابل للمبادلة بحصد بضع مئات من عمّال المناجم والفلاحين بالرشّاش كلّ عام، فوق هذا الهلال بين السماء والأرض، إن ذلك لا يمكن أن يشكّل إلاّ تفصيلاً إضافياً. وأياً ما كان، فإن متوسّط الحياة، في مناجم القصدير، لا يبلغ الأربعين عاماً. فما العمل إذا كان عمال المناجم المصابون بتصوُّن الرئة يفضّلون تبذير المئة والخمسين فرنكاً، راتبهم الشهريّ، في المطعم، على صرفها في الصيدليات - غير الموجودة على كل حال؟ وإذن، فإني لن أطيل التوقّف هنا عند هذه الترّهات التي لا تعني الأشخاص الرصينين. ولم يكن ينقص ايميلاّ الرصانة. كانت قد أقامت وطنها على هذا النجم المذنّب الخشن المثلّج. بل هي قد اختارت أن تهتمّ بالغ الاهتمام بحاملي الرشّاشات وأن تنعزل في معسكر المرشوشين. ولكنها كانت هي أيضاً تنفر من التفاصيل.

قاطعتني بلهجة مُتعَبة بعض الشيء، فيما كنت أحدّثها عن الاتصالات التي كنت قد قمت بها مع أوساط مختلفة من المعارضة في المنفى، فقالت:

- إن التناقضات داخل البورجوازية تسمح، أيها الرفيق، بهامش من المناورة أكبر، ولكنها لا تحلّ مشكلات الجموع. ولا بدّ أنك تعلم أن التناقض الرئيسي هو بين...

نظرت إليها فاغر الفم. هي أيضاً: ربما بسبب جهلي المطبق.

- أفهم ذلك جيداً. ولكن السياسة لا تُمارسُ بالأمثال. إنها تصنع شهداء أو حماقات. أو الاثنين.

- ألا تؤمن بعدُ بالكفاح المسلّح؟ أم أن المنظمة هي التي ليست بعدُ على المستوى، في نظرك؟

- بالعكس. الأفضل أن تهبط المنظمة قليلاً. لترى ما يجري في هذه الحياة الدنيا.

- القضية هي معرفة ما إذا كان المرء مؤمناً أو غير مؤمن بما يقوم به.

- وما الذي يُفعل الآن؟

- تذكّر شيئاً يا بوريس: ليس ثمة من أفق لمن يبقون بمستوى الأرض...

بالتأكيد، أنا الذي لم أكن في المستوى. كانت « الثورة » التي كانت ترسم جانبيّتها في البعيد، منبثقةً في مكان ما بين رأس هورن والأنتركتيك، مجهولةً من علماء الجغرافيا بقدر ما هي باهرة، تتفوّق عليّ بكل شاقوليّتها الشبيهة بشاقولية جبل جليديّ.

نظرة أخيرة دائرية تمهيداً للانصراف، على الغرفة العارية، المضيئة. وعلى الملفّات والخرائط الجدارية. على هذه الفتاة المحتشمة إلى هذا الحدّ، المضيئة والعارية هي أيضاً. صدغاها المستقيمان، أنفها المستقيم، نظرتها المستقيمة. كان هذا القدر من الاستقامة يحيّرني. يقال إن المؤنث يُفضّل المائل. لقد كانت ايميلاّ تطرّق بكل قوّة المقرعة، بوجه مكشوف، من غير أن تخشى أن يُحكم عليها أو تُهاجم أو تُهزم. كما لو أني كنت أنا الغشّاش. وتلك الصراحة اللطيفة لطافةً غير قابلة للتفسير كانت تسحرني. عالمها المغلق، ذو الجادّات المستقيمة والمقاسم اللامجدية، عبثاً ما كنت أقول لنفسي إنه لم يكن من هذا العالم، فقد كان يشقّ عليّ أن أغادره.

كانت توقّع، منزعجةً، على ملامس مُزرنخة لمسجّل صوت. وارتفع فجأة في الهواء الراعش نغمٌ حلقيّ، وأصبحت القاعة كلُّها تدرُّجاً ضوئياً كان الانتصار فيه يمتزج بالتنهدُّات والغصّات، والسماويّ بالجوفيّ. كان صوت أرجوانيّ وأسود يصعد ويهبط من أُخرويّة فيولونسيلات وفواصل - أكان تذكيراً أم تحذيراً؟

- فيلا - لوبوس، الباخيناس برازيليراس.

- هل تحبيّن هذه الموسيقى؟

- إنها تبعث فيّ بعض الخوف، ولكنها تترك عندي أثراً طيّباً. حين يُصبح كلُّ شيء مفرط السهولة.. وأطير... أضع هذه الموسيقى.... فأعود إلى الأرض...

أضفت بصوت خافت، من غير تفكير:

- إلى الأرض أو تحتها، سيّان.

كان كائن آخر ينظر إليّ، وقد بعثتْ هذه المجهولة رعشةً فيّ. كان وراء عينيها الزرقاوين المخضرّتين، الشفافتين إلى حدّ بعيد، أثرٌ من ضيق انكماشيّ وأسود - بؤبؤ خفيّ خلف الآخر - لم يكن لي وصول إلاّ إلى عينيها العلنيتيّن، عينيها النهاريتيّن. أكانت العينان الأخريان لا تنفتحان إلاّ في الليل؟ أياً ما كان،

فذلك مِلْكٌ خاص محظورٌ الدخول إليه.

أُخذتُ على حين غرّة وأنا أحاول فكّ الحظر، فلذت بالفرار منسحباً.

* * *

كيف ترانا قضينا على الضيق والانزعاج؟ تمّ ذلك بغير شظايا ولا ضربات فأس. لقد انشقّت من تلقاء نفسها، حرفيّاً، على مرّ الأيام. تلك الأيام التي كانت تمضي دائرةً بين شمس الصباحات الكئيبة والليالي المشرقة التي كنّا نحتسي فيها الروم تاركين نفسينا منزلقين ألف عام إلى خلف، في تلك الكآبة الهنديّة التي كانت تحملنا إليها أشرطتنا المسجّلة. قليل من «الكينا»- النـاي الهنـديّ المقدود غالباً من قصبة أحد اللامات-، ومن مِصْفار طيْر، وذلك الماندولين ذي الأوتار المنقورة على تِرسْ أرمديل، «الشارانغو»، يكفي هذه الرحلات فوق «الأند» التي يعود المرء منها مكتئب القلب، ثقيل الساقين. كانت ايميلا تشرب قليلاً ولكنها كانت آخر من ينطلق، وقد انعشتها هذه اللُّقى مع موسيقى بلدٍ لم يكن بلدها بل كان أكثر من ذلك: مستودع أحلامها، قصرها الثلجيّ، هناك في الأعالي، كوكباً ثابتاً فوق الدناءات. كنّا زهاء خمسة عشر، وكانت هذه الاحتفالات المظلمة تنعش بيننا النار المشتركة. لم تكن نار معسكر، ولكن ألوان الوحدة كانت، فيما نحن جالسون على البلاط حول زجاجة فارغة، تذوب في تساوق وألفة، كما في تلك المعسكرات الجبلية حيث يقعي رجال المقاومة المرتجفون في الظلام حول قدرٍ مليئة بحساءٍ رديء مركّز من الأرز والموز، ولا يهمّ بعد ذلك الغذاء والتعب ما دام كلّ فرد يستطيع أن يتدفّأ بـ«النحن» القبليّة للجماعة. وقد أدركت أن ايميلا، بعدما عاشته في بلدها، كانت لها حاجة مادّية إلى هذه البدائل من الحياة المشتركة. كانت قادمةً من الوحدة والبرد، أي من حرب الغوار المدينيّة وهي حرب بلا لباسٍ عسكريّ تفصل المقاتلين أحدهم عن الآخر- كما يقتضي الأمن- وغالباً ما تضعهم في مواجهة أنفسهم أكثر منهم في مواجهة العدوّ. إن الاسم المستعار إلى الأبد، والحلّ الخاطف للمسلّحين بعد أصغر عمليّة، وفَصْل الوحدات، ودوران العربات والمنازل والأفراد دوراناً غير منقطع، والمقاطعة المفروضة على كل فرد مع أهله وذويه وحيّه وأصدقائه، كل ذلك يضيع العقل ويجلب الجفاف. ولم تكن ايميلا قد عرفت من حياتها النضاليّة التي كانت بعدُ قصيرة، إلاّ خشونة المدن التي يتيه فيها المرء، تترصّده جميع العيون، ويحاصره جمعُ الأرصفة الهادر الذي لا وجه له. وما كان بعض الرفاق قد همسوا لي به عن ماضيها كان يجعلها في عينيّ أقلّ تعجرفاً. كنت اقترب منها، هي المتباعدة. إن المقاتل الدينيّ ناسك متوحّد في العصر، وهو يجعل من حياته صحراء يحجز فيها نفسه بشراسة حتى أنه لا بدّ من أن يرى في كل جدارٍ خَصاصاً. وهذا الحبيس الطوعيّ لا يمارس كهنوته في ترافق يوميّ، كرجل المقاومة، ذلك الراهب القانونيّ، ولا يمكن لإيمانه أن يكون إلاّ تقشُّفاً واعياً، إماتةً مستديمة، بلا شهود ولا زملاء. كان باب ايميلا، في رواقنا، أشدّ جميع الأبواب صمتاً.

حين كنت انفرد براوول، كنت أقول له:

- صديقتك، ليست سوقيّة جداً!.

- ليس هذا خطأها، يا عزيزي. إن العمل هو الذي يفرض عليها ذلك.

- وخارج العمل؟

- هذا شأنها. إن كل شخص يجرّب حظّه.

- أليست هي مع أحد؟

- لا أدري. تحقق من ذلك بنفسك!

فكرة سخيفة: كانت في منجى، فظّةً خلف بسماتها، أشدّ ملاسةً من أن تُمكّن منها. لا تخفق أهدابها خفقةً واحدة، لا أحمر على وجنتيها ولا كحل على الجفنين. أبداً غائرة، شفّافة. ولقد كان هذا التحفُّظ يتبدّى شاذّاً كأنه تصرُّف فظّ بين ذكور الفريق ذوي الصدور المنتفخة والأصوات المتعجرفة، ولكنّه كان يُبعد المفتّشين عن الغواني ويثبّط أدقّ المناورات. كانت تردّ سريعاً بالمثل على كلماتنا الخشنة، وكانت طبيعتُها تضع حدّاً للمجون. كان بوسعها أن تتباذأ عند الحاجة، وكان يكفيها، كما يخيّل إليّ، مجرّد بسمة حنوّ لتقطع أدنى أثر كهربائي في لقاء حميم. لم يكن بالإمكان تصوّر امرأة أقلّ منها إغراءً، ولا طبيعةً أقلّ احتداما. إن القَدَر يطبخ ضرباته على مهل في الماء البارد.

لم يكن لكبريائي، على أية حال، أن تشكو من كبريائها أكثر مما ينبغي. وحين وقعت في يدي نسخة مصوّرة من تقريرها، رأيت أن معظم ملاحظاتي، التي احتُقرت في حينها، كانت تمثُل في مكان جيّد من النسخة. وهذه المسرّة الصغيرة وضعت الكبرياء الذكوريّة جانباً، فكان أن أصبحت أتردّد كلّ يوم على غرفتها. وانتقلنا من الثرثرة إلى المسارّة- على غير شعور منا.

الرجال يتحدّثون، والنساء يصغين، ولم نلبث أن قلبنا هذه الأدوار. أكانت بحاجةٍ إلى البوح، وأنا إلى الصمت؟ لم يكن مسموحاً ذكرُ الحاضر. هذا أفضل: فقد كان دَبِقاً. كان يبقى الأساسي: مِلْزَمةُ الأصول، وانطلاقاتنا المستقبليّة. وقد رجع إليها ماضيها وهي تتحدّث، وكانت تتوقّف عنده كلّما أوغل في القدم. كانت تتحدّث عنه بلا لذّة، ولكن من غير خجل: هذا ما صنعوه منّي، قبل أن أتمكن من أن أصنع أنا نفسي. وأكتشف بفرحٍ أنها لم تكن ألمانيّة حقاً، وإنما من كارنثيا، بالقرب من فريشاخ، في الألب الجنوبي- في قلب أوروبا. وقد قلت لها ذات يوم لأظهر أهميّة الأمر «ليس خبيثاً أن يولد المرء في النمسا» فأجابتني: «ليس هناك ما لا يمكن علاجُه. لقد وُلدت أنت في فرنسا». النمساويّ كان أباها، وليست هي. وأمّها؟ ماتت لا تدري أين، بعد ولادتها بقليل. وأما هو، فمزروعٌ جيداً على ساقيه، في مزرعة ضائعة في قلب المفازة، غير بعيدٍ عن الحدود

البرازيلية. كان قد وصل إلى بوليفيا بعد الحرب، حاملاً مداليات خدمة لامعة. قلت «كان يعاني بعض ألوان الضجر والضيق فأراد أن يبدّدها؟» فغضبت وقالت مصحّحة «لا، إفهمني جيّداً: لقد شارك في الحرب كالجميع، ولم نأتِ مباشرةً بعد «الهزيمة»، ثم صحّحت ثانيةً: «ماذا تريد، هكذا كانوا يقولون في العائلة» تقصد عائلتها: تلك التي لم تَخْتَرها. ولكنها كانت تعبد أباها المغامر. كان قد امتهن جميع المهن: مرشد جبليّ، بطل في التزلّج، مستكشف، رجل سينمائيّ، ضابط، قبل أن يتوقّف عند مهنة الرائد. وكانت هي في السادسة عشرة حين اصطحبها في مهمّة استكشاف عند تخوم بوليفيا والبرازيل. إلى اليوم الذي تعبا فيه من الجِذْعيّات[1] والناموسيات المثقوبة، فبنيا بيتاً من الحجر في منطقة ضائعة من «البني» بين الغوابوريه والماموريه، توصف بأنها مستعمرة زراعية لم يكن أحد من المعمّرين يخاطر في دخولها. وعلى هذا النحو أخذ «المخاطر بكل شيء» يربّي الخنازير، مع ابنته. من غابة إلى أخرى، اجمالاً. طفولة بين أشجار التنوّب، ويفاعة طويلة بين المعترشات والقابوق.

كانت، وهي ترتدّ بالسنوات إلى الوراء، تعود فتصبح صبيّة عفريتة أوشك أن أشدّ لها شعرها. كما لو أنها كانت تكتشف في وقت واحد معي مذاق تلك الطفولة التي كان كل شيء فيها غريباً عليّ. مذاق «الريدلنغ»، الحلوى بالقرفة. قلوب من كعك الأبازير مُزيَّنة بزهور من السكّر الورديّ والأزرق السماويّ؛ ملفوف بقليّ كان يوضع خريفاً في البرميل مع الكمّون؛ قطع ملحم كبيرة وشُمرة تُنقع طوال الشتاء تحت حجرة ضخمة ليُصنع منها شُكروت[2] السنة؛ مذاق «الكنوديل»، تلك الكريّات الدائمة من الحنطة والشحم المرشوشة بمحسوق الخبز المحمَّص. وتلك الرائحة من الصمغ والكرز الحامز التي هي رائحة المقاصير النمساوية. المنزل العائلي الكبير التي تصفه بأنه «السكلوس» - لقاءات الصيد، في النمسا، ترتفع إلى سرّ «القصر» - بسقفه الكبير من القرميد الأسود المنحرف الزوايا، وقُبّته المروّسة التي كان يزنّ فيها جرسُ الغداء، ودرج مدخله من الخشب المفرّغ، وأعمدته وشرفاته المصبوغة بزخارف سود وحمر. من هناك، كنا نتناول مفتاح الحقول، وكانت تأخذني في الزلاّجة لننصب الأفخاخ للمرامط والثعالب (وكان أحدها قد ذبح وحمل في الثلج ليلاً الشادنَ الذي كانت تربّيه هي نفسها بالرضّاعة). كانت تأخذني إلى الكرنفال، وكانت تمضي في الثلوج، متنكّرة بزيّ الحمامة، من بيت إلى بيت، مع جميع أولاد الوادي، لتجمع في سلتها الفطائر بالمشمش والشلنات الصفر ما دامت لا تُعرَف تحت قناعها. أو تأخذني إلى تلك الجنازة الجبلية، تلك المأدبة الفاخرة حول الجثمان لمدة ثلاثة أيام، في منزل المتوفى، حيث يشرب المرء الشنبص ويأكل شحم الخنزير، قبل أن تبدأ العربات تطوافها البطيء حتى تبلغ المقبرة خلف الكنيسة، حيث تجلس النساء في جانب، والرجال في آخر. أما الجوقة المختلطة التي تلتقي أمام الكنيسة، فتبتهج حول صاري الحلوى، أعلى جذع عمود في البلد الذي يُزرع أول أحدٍ من أيار، ثم يوضع في المزاد بعد الحصاد، أول أحد من أيلول. لا من أجل تاجه من لحم الخنزير، بل لتقطيعه أجزاء. وتمرّ الأعوام، وتكسر بيت اللعبة التي كانتها، وها هي ذي تخرج عند مطلع الفجر، الغدّارة على كتفها، إلى جانب أبيها الجنديّ القديم. وتنسلُّ خفيةً، برغم سنّها وجنسها، في أَخَويّة الصيّادين. تكنُّ الاحترام نفسه للطرائد ولطقوس الترصُّد الشديدة الدقّة. وتتعلّم أن تمشي في الغابة صامتة، وأن تعثر على دربها في متاهة المخارف والمسارب، وفي تلك المنحدرات التي تغطيها، طوال ستة أشهرٍ على أثني عشر شهراً، جَزّةُ الحَمل تلك الثنائية اللون، ذلك الزبد الصوفيّ الذي تمتزج فيه خضرةُ الأرزيّة الرقيقة بِدُكْنة التنّوب. وأن تباغت ديك الخلنج الأسود الأحمر، عند شعاعات الفجر الأولى، في مطلع الربيع، جاثماً على أرزيّته، هادلاً للموت. وأن تميّز اليحامير من الأيائل التي كان لكلّ منها، في المزرعة، اسمه الخاص وقصّته ونقائضه وقرونه السنوية التي يُعثر على خلائفها في الثلج فتُعلّق على الجدران. وأن تتعرّف عمر الأيّل وقيمته من عدد الشُّعب في قرنيْه، ومن لون العروق المتراوحة الأحمرار، ومن بياض العاج في الأصابع، ومن عدد اللآلىء في الأُطرة. وأن تغذّيها بالجفيف والملح، وأن تشدّها من حَوْشب الكتف، إذا سمحت لها السنُّ بذلك، خشية أن تجرحها أو تؤلمها، وأن تُفرغها سريعاً بالخنجر، تجنُّباً للانحلال.. حتى ذلك الصباح الذي قدَّم لها أبوها أضراس أيّل مُسنّ في الخامسة عشرة: ومنذ ذلك اليوم، لم يبق لها ما تخافه، وأصبح باستطاعتها أن تنطلق وحدها، بلا وصيّ ولا حارس صيد.

كانت ترسم معي مرةً أخرى درب طفولتها وحداثتها، ولكنها تبدو أكثر تفاجؤاً مني بنضارة ما كانت تعيشه ثانيةً وهي تروي. كانت تقول لي بلهجة عتاب: «إنها المرة الأولى. ليس لي ماضٍ ولا أريد ماضياً. لقد قاطعت أبي. وربما لم يتغيَّر عليّ شيء». ولم أحصل منها إلاّ على شذرات عن رحلتهم إلى أميركا. ولكنها تركت لي فقط أن أحزر أنها عاشت زواجاً فاشلاً مع مهندس مناجم ألماني كانت قد تعرّفت عليه في لاباز، أثناء العطلة. كان يعمل لصالح «كونيكوت كومباني»، وقد ذهب الزوجان الشابّان يقيمان في التشيلي، في منجم للنحاس، أو بالأحرى في الأحياء المخصّصة للملاكات الأميركية والألمانية: غولف، كرة مضرب، مسبح، مدارس خاصة للأطفال. ولقد اكتشفت المتوحّشة ذات الأربعة والعشرين عاماً الحياةَ المدنيّة دُفعةً واحدة: التمييز بسبب لون البشرة، جدار المال، صراع أرباب العمل، خضوع الآخرين، فوارق المواليد. وأنه كان أسهل عليها وأهون أن تواجه نظرة حيوانٍ واقعٍ في ضيق شديد من أن ترى بشراً يُذلّون أمامها وقد خفضوا أبصارهم. وكان زوجها الشاب قد بدأ يُحبّ، في الأسواق البوليفية، أن يقذف في الهواء قطعاً نقديّة، وسط الجموع، لينعم برؤية الهنود وهم

يرتمون أرضاً متنازعين من يكون السابق لالتقاطها في التراب. كان هو يضحك ويلتقط الصور، بينما كانوا هم يتضاربون وقد شدّوا على أسنانهم وسالت وجوههم بالعرق. أما هي، فكانت تصرف عينيها، واضعةً هذه اللحظات الرديئة على حساب السياحة ومباذلها. وقد أرادت، في منجم « التانيانت »، إعطاء دروس لأولاد عمّال المناجم، تزجيةً للوقت. لكن زوجها أصيب بغثيان فمنعها من ذلك. كان يريدها حصراً لاعبة غولف مُتخلِّعة، العصا على كتفها، بحذائين واطئين، وتنّورة اسكتلندية، وصدرة وقبعة من« التويد »،وهي تستدير برشاقة على عشب « البيض ». والصورة كانت تناسبها حقاً. وبعد فترة، ذهبت إليه في المكتب، بعد حَبْسة « أزمة » شعرت بها، فرأته يصفع بكل قواه عامل منجم شيليًّا مُسنًّا، ويطرده خارجاً، وهو هنديّ أعرج أتى يطلب منه عملاً للمرة الخامسة. على جاري عادته، ليتظاهر أمامها بالقوّة، أو ليريها كيف ينبغي التصرّف مع « هؤلاء البشر »؟ إنها لم تطرح السؤال على نفسها. ولكنها أحسّت بالخجل، ورفضت أن تخفض رأسها وتركته بعد ذلك بيومين. وبعد ذلك، صمت مطبق. كان دربانا يتفرّعان في اللحظة نفسها التي كان يُفترض أن يلتقيا.

ماذا كان باقياً لها من هذا كلّه؟

– أتريد حقاً أن تعرف؟ إذن، انتظر وأغمض عينيك.

دُرج ينزلق، ومفتاحٌ يُدار، وفتحت عينيّ. أخرجت ايميلاّ من صندوق خشبيّ صغير مُغلَّف بجلدٍ مقلوب حزاماً رائعاً ذا حلقات من فضّة، مرصّعاً بجواهر عاجية معلَّقة هنا وهناك.

– النمسا، لقد نسيتها، ولكن أنظر: هنا سنّا الأيّل اللتان أهداها أبي إليّ يوم بلغت الخامسة عشرة. هناك براثنُ مرموط، وإلى جانب ناب خنزير برّيّ.. إنني لا ألبس الجواهر، ولكن هذا هو طلسميّ. إنه، حتى الساعة، لم يتركني.

وماذا كان باقياً لي، أنا، من هذه الذكريات التي تتخذ شكل اعترافات؟ ربّما، ثقتها. شيء ما أشبه بتواطؤ جديد. كنا كلانا أوروبيين، مُجتثّيْن في سنّ متأخّرة، وكانت مُدنُ شبابي تساوي، على صعيد الغرابة، غاباتها الكرنثَينّة. كنّا أشدّ تشابهاً، على نحوٍ ما، من أن يتألّم أحدنا من الآخر، من أن نتجاذب دُفعةً واحدة بشكل غير قابل للمعالجة، أقصد: جسديّ. ولكننا كنا كذلك أشدّ تشابهاً من أن يستطيع أحدنا، بعد الآن، أن يولي الآخر ظهره بلا تحذير. أتراني كنت قد وجدت صِنْوي؟ كان بامكاني أن أقول كذلك نقيضي: إن عالم الطفولة مُغلق دوني، عالم الطبيعة الأكمد، ولم أكن أنبس بكلمة عن الماضي. كانت أمامي النسخة الأصليّة التي لم أكن إلاّ صورتها المزيّفة. الجوهر المتجسّد لكل ما كان ينقصني: ملكة الاضطلاع بالنفس، وأن يفرض الإنسان نفسه على المصادفة والاتفاق وألاّ يخضع لتحوّلاته الذاتية. إنّ من البديهيّ أن صديقتي الجديدة قد استحقّت ما كان يحدث لها؛ إن لم تكن قد أرادته حقاً. من هنا تلك الطريقة التي كانت لها بأن تحمل عبر البلدان والأضواء هويّة لا تتبدّل، في حين أن أية لغة جديدة، أيّ عطر جديد، أيّ شكل من أشكال الشمس، كل ذلك كان يوجع قلبي ويقلب عقلي رأساً على عقب.

* * *

بسبب لبْسٍ بذلت كلَّ جهدي لتبديده، كانت ايميلا قد ظنّتني منذ البدء قائداً. وكانت تصنّفني في عداد المختارين، أولئك الذين يحملون في نفوسهم شيئاً مفرط العظمة لن يفلتوا من خطره، بينما كانت ترى نفسها هي مجعولة لتبقى في المكتب وتخدم على المائدة مدعويّ القَدَر. وأن أدلّل على أنها كانت ترى كلّ شيئاً بالمقلوب، هذا ما بدا مزاحاً رديئاً من قبلي وعلامةً على تواضع يفوق قدرة البشر! كانت بطبيعتها متواضعة، ولكنها لم تكن تحتمل المزاح. كان ثمة في رأيها من هم مختارون، والآخرون. ولم يكن في اليد حيلة تجاه ذلك، وكانت محاولة إثبات العكس هي من قبيل التدنيس. أم أنها كانت أشدّ حشمةً من أن تقبل حقيقتها؟ إن كلّ ما كان يمكن أن يَضَعها في مجال الضوء يقلقها ويُحزنها.

أذكر أني ذات مساء، ونحن على شرفة غرفتها، قرأت لها بصوتٍ عالٍ عبارة تشي غيفارا المعروفة « اسمحوا لي أن أقول لكم، حتى ولو كنت أخاطر بأن أبدو مضحكاً، إنّ الثوريّ الحقيقيّ مقود بمشاعر حبّ عظيمة ». وقد كانت هذه البدهيّة، في وضعنا، صعبةً على التفسير صعوبتها على التطبيق. وتابعت وأنا أرفع صوتي (وبعض تفخيم في الكلام لم يكن يضرّني عند الشمس الغاربة).

– إن الثورة، لو تعلمين، ليست من ديناميت، بل من هندسة معمارية. ليست هي المأساة، بل هي العيد والمهرجان. هذا هو تعليم التشي. مع الأسف، حين يواجه المرءُ ساديين، فيجب أن يحذفهم– ليبقى.

قالت بشيء من الكآبة:

– نعم، رئيس الاستخبارات العسكرية... لقد آن الآوان لسلخ جلده، هذا الرجل.

– ترين إذن، يا ميمي، يجب تصفيةُ « أنايا » بدافع من حبّ. من يستطيع أن يفهم ذلك؟ هل تستطيعين أنت أن تُفهميه؟ اتتصوّرين نفسك وأنت تشرحين ذلك لقضاةٍ أو لرجال شرطة؟ افترضي أنك استطعت يوماً أن تطلقي عليه. إنهم يأخذونك...

– لن يأخذوني...

– ولكن افترضي ذلك، يا ميمي. على سبيل التمثيل. يحقّ للمرء أن يتسلّى قليلاً. إنك تتخيّلين المشهد: المكتب، الاستجواب، رجال الشرطة تجاهك....

– إذا أخذوني حيّة، فلن يكون ثمة استجواب من هذا النوع، أنت تعرف أدقّ الحِيَل: عارية، وعلى رأسي الجبّةُ الكاغولية، وعلى الفور إلى « البارّيا » (العارضة المعدنيّة التي

يُعلَّق عليها السجين، متباعد الساقين، لتمرير المجرى الكهربائي حتى ٢٠٠ فولت، لأن الـ ٢٢٠ فولتاً نعني الصعق المباشر بالكهرباء، وأمثال «أنايا» هم من المُرهفين الذين يعرفون أن يعيشوا ويَقتلوا بهدوء، آخذين ملء وقتهم) وبعد ذلك يغتصبونني، أو قبل ذلك. ثم يحقنني الأطباء في الحلق بإبرة الكورار[1] – تلك التي تخنق تدريجياً. ثم يصنعون بي ما يصنعونه بالجميع. وأكثر من ذلك بقليل. لأن «أنايا» هو طوطمهم المتنقل. إنهم يجعلوننا ندفع ثمنه غالياً.

– افترضي أن يكون ذلك في أوروبا، حيثما كان. في أوروبا شرطةٌ ممدّنة، مع محامين ومحاكم وقضاة تحقيق. بل إن هناك تشريعاً خاصًّا للسجناء السياسيين.

– هذا أجمل من أن يكون حقيقة، وأنت تسخر مني. حتى ولو كان ما تقوله صحيحاً، فإن «أنايا» ليس من نوع الذين يتسكّعون في أوروبا.

– ولكن افترضي ذلك! أنظري، إنني أقلّد الأصوات، أُمثّل. قاضي التحقيق: «لماذا قتلتِ هذا السيّد؟ إن هيئتك لطيفة، فالأمر، يا آنسة، غير مفهوم!» أنتِ: «قتلتهُ بدافع من الحبّ، يا سيدي القاضي» هو: «ألا ترين، يا آنسة، أن بالإمكان أن يحبَّ الإنسانُ بنفقات أقلّ؟» أنتِ: «إن المرء يفعل ما يستطيع، يا سيّدي القاضي. حين أحاول أن أفعل كما يفعل الجميع، لا يُعترف بصنيعي أبداً». وهنا، الاستشهاد بعبارة التشي. والتأثير يكون عظيماً.

إخفاق كامل. كانت ايميلا قد أصغت إلى كلّ شيء، ولكنها لم تبتسم: بل كان وجهها كلُّه أحمر. أخجلها أن يستطيع أحد السخرية والاستهزاء بشيء في مثل خطورة إعدام جلواز أو عناق غراميّ.

– ميمي، أتعرفين لماذا لا تحبّين مزاحي؟

– لأن المرء لا يمزح مع الأمور الجدّية.

– أنت تخطئين هنا بالضبط. فبسبب أن الأمور جدّية، فيجب المزاح معها. وإلاّ لم يكن هناك جدارة ولا استحقاق.

– إنك لمغفّل أكثر مما كنت أقدّر.

كان تفكيرها صائباً. ولكنني كنت أفضّل المواربة على أن أقول لها الحقيقة فجأة: وهي أن الأمور الجدّية إنما صُنعت، بعد فوات الأوان، بالمزاح. كانت تعبد النُّسب والأبعاد، وكانت تعتبرني كافراً حين كنت أروي لها بالتفصيل حرب عصاباتنا السابقة التي لم تكن تريد أن ترى فيها، بسخاء النظرات المتعالية، إلا حركة عمالقةٍ متماسكة. وعلى مستوى الإنسان، كان لا بدّ من التفصيل. كانت ايميلا ترى أشياء الحياة الصغيرة مصغّرة، وكانت تظلّ ترى الأشياء الكبيرة مكبّرة، بدافع من سذاجة أو من احترام للمواضعات، فكان يترتّب عليّ أنا أن أردّها إلى الواقع بتذكيرها، مثلاً، بالإثارات الهزلية أو ألوان اللّبس التي تدين لها بالبقاء على قيد الحياة والتي كان قد رواها لي رفاقها وهم يربّتون على أفخاذهم.

– ولكن تذكّري هجوم الرفاق الأوّل على أحد المصارف حين كنت لا تزالين بعدُ في ذلك البيت الجميل في لاباز وأنّهم كانوا قد طلبوا منك إخفاء الغنيمة في بيتك. ألم تكن تلك مزحة؟ وما كدت تدخلين، وفي يدك اليمنى بعدُ الحقيبة المحشوّة بقطع النقود، وفي اليسرى كيس الغولف وفيه الرشيشات، حتى طرق جارك الباب ممتقع اللون ليقول: «اعذريني، يا آنسة، لقد سمعت في الراديو أنه حدث هجوم مسلّح في الوسط، وأن حالة الحصار سيعاد فرضها وسيقومون بالتفتيش في كل مكان، هذه الليلة. ألا تستطيعين أن تأخذي منّي هذه الصحف وهذه الكراريس... لهذه الليلة فقط... أنتِ، ليس لك أن تخافي شيئاً... أما إذا حطّوا رحالهم عندي ووجدوا مجموعة من صحف المعارضة.. فأنت تفهمين..» وكان أن أخذت تُطمئنين الرجل الذي تصطكّ أسنانه ثم اصطحبته إلى بيته «ولكن بكل تأكيد... تستطيع أن تعتمد عليّ.. فهنا، هنا بيت الله الرحيم.. أنت في مكان أمين...».

وكان عندي أجمل من هذا ما أرويه لها عنّي، أو أكثر مزاحاً. ولم أكن أحرم نفسي من ذلك دائماً. وكانت معجزاتنا القديمة الغريبة تبسط أساريرها قليلاً، حتى الندم النهائيّ:

– أجل، ولكن نحن لم تكن الأمور جادّة في حسابنا. لم نكن إلاّ رجالاً ونساء.. جماعة ما.. أما أنتم...

– بكناناتنا وقبعاتنا العريضة وشواربنا الطويلة المزيّتة.. صحيح أننا لم نكن على الإطلاق رديئي المنظر. أما كفرسان مكسيكيين مَهَرة، كما يُرون من هوليوود...

كانت وقاحتي وقهقهاتي تمزّقها، وكانت، وهي المتكلّفة الاحترام والقصيرة البصر (الواحدة بسبب الأخرى) تحملق أمام هذه الصفوف من التماثيل الضخمة، الأسطورية إلى حدّ ما، التي كان البشر ينصبونها على طول طُرُقهم ليعطوا أنفسهم فكرة أفضل عن أنفسهم. إن الأحياء، الواطئين أكثر مما ينبغي على أقدامهم، هم بحاجة لتكبير أنفسهم ورفعها في ظلّ الأموات العظام. وقد كانت حركاتي وإشاراتي الصبيانية تستطيع على الأكثر، حين تؤخذ في هذا الإطار، أن تُعتبر قفزات فجائية. كانت ايميلا تعتبرني شيئاً آخر غير بهلوان حبال غريب لأني كنت قد عاشرت نصف إلّه وبعض الأبطال الحقيقيين. وكنت أُقسم لها بأني لم أفعل ذلك تقصُّداً. ما يهمّ: فقد كنت عائداً من الظل، ممتزجاً بظلال كثيرة مجيدة إلى حدّ أن شمساً سوداء كانت تكلّلني في عينيها بهالةٍ غير مُستَحقّة. كان رؤسائي يَعون، بوصفهم محترفي المخاطرة، أني لم يكن لي كبير دَخْل في الأمر. كانوا يعرفون بالتجربة أن السياسة كالحرب تكمنان في تنظيم ما ليس متوقّعاً والإفادة من العوارض. أما بالنسبة إليها، فإن الطارىء لم

(١) الجذعية: زورق يُصنع بتجويف جِذْع شجرة.

(٢) كرنب مخلّل وممّلح.

(١) مادّة تستخرج من بعض النباتات استعملها هنود أميركا لتسميم السّهام، وتستخدم طبيًّا لإحداث الاسترخاء العضليّ (هـ. م).

يكن موجوداً، بحيث أن نعمة من كان رئيسنا كانت تعود فتفيض حتى على أصغر مرؤوس فينا. وإذ لم تكن تُفلح في مدّ جسرٍ بين القصص الحقيقية الصغيرة التي كنت أرويها لها على سبيل التسلية وبين قَدَر غيفارا الأسطوري «قائد اميركا»، كانت تختار اعتبار الأولى نزوات بهلوان. كيف كان لي أن أفهمها أنه يحدث للناس، مصادفة، أشياء أكبر منهم كثيراً؟ وأن ليس من هو مسؤول عن الرجال العظام الذين يلتقيهم في الطريق؟ كلُّ ما كان يمكن أن يُتعلَّم، كانت اميلاّ قد تعلّمته أو هي بسبيل تعلُّمه: تفكيك المسدسات الرشاشة، حلّ الشفرة، مراقبة- مضادّة في المدينة، قوانين «الجدلية» الخمسة، وأن تكون آخر من يتكلّم خلال الاجتماعات النضاليّة. وكان باقياً لها أن تكتشف بؤس الأساطير، هذا التشبيك من الخفايا والارتجالات، هذا النسيج البئس من التفاهات الذي تقتطع فيه «الثروة» أجمل نماذجها. إن «التاريخ» يفصّل أثواب حفلاته من الصوف نفسه الذي يقصّ منه أثوابه المدينيّة. ذلك هو سرّ غير قابل للنقل لا يتركونه يجري في الكتب ولا في معسكرات التدريب. إنه يُخرَج من الركام ويُحمل إلى الحفرة. والباقون على قيد الحياة- حين يكون ثمة باقون- هم أخبث من أن يرتكبوا الوشاية. ولكن ربما كان لؤماً مني- بعد كل حساب- أن أتصوّر أن اميلا كان بامكانها أن تحتفظ بمثلها الأعلى إذا فقدت أوهامها.

* * *

كان أيلول يزحف، وليس من خبر عن كارلوس. ثم بلغتنا أخيراً برقية: دعوة مفاجئة إلى كوريا الشمالية. ولن يكون هنا قبل مرور شهر على الأقلّ. كانت البرقية تعلن: خمسة عشر يوماً، ولكن بالإمكان توسيع الفترة بادراج قوس أو قوسين معقوفتين لجمعية الاستهلاك. وقد تنهّدت اميلا، مستسلمةً للأسوأ «ولماذا لا تكون باريس، ما دام هو فيها!» فأجبتها «إنه يخطيء إذا حرم نفسه. إن ما ترقصينه يوماً أو تشربينه، ليس ثمة أحد ينتزعه منك». ألم تكن الانفلاتات في أوروبا الغربية مغطّاة بالحكمة نفسها التي يتبعها رجال العصابات في مآدب اللقاءات الجبليّة: التهموا ما تستطيعون التهامه، كدفعةٍ على حساب ما لن تستطيعوا أكله فيما بعد؟ ولكن المزعج أنه كان قد أُعدَّ لنا، لهذا الشهر بالذات، تدريب صغير للتقنيّات المدينيّة. ولئن كان للاحتياطيين السويسريين فترة استدعاء، فبامكاننا، كارلوس وأنا، أن نمنح نفسينا مثلها. وكانت السلطات قد حرّرت لنا، نحن الاثنين، قسماً كاملاً من أقرب معسكر للتدريب، واحتفظت لذلك الموعد بمدرّبين مختارين بدقّة. إن هناك دائماً ما يجدر أخذه، حتى ولو لم يعد المرء حديث عهد بالانضواء. وفي الدقيقة الأخيرة، اقترحتُ على الأصدقاء إحلال اميلاّ محل كارلوس: ألم يكن لها تدريبٌ مُشابه على البرنامج- ولو أقلّ تخصُّصاً؟ فالأفضل إذن تحقيق ضربتين بحجرٍ واحد.

مُزاوجة بلا فكرة مسبّقة. أقسم أن اقتراحي كان متجرّداً. إن هذه التدريبات الإضافية تتيح المحافظة على الشكل. من غير أن ننسى أن هناك أشكالاً فارغة، وأن الارتكاسات الجيّدة لا تخلق مقاتلين جيّدين. وهذا النظام، إنما كنت أفرضه على نفسي لأشدّ ثانيةً نوابضي، وأعاكس تحفُّظاتي وتردّداتي. إن من كانت له مغريات ثقافية ينبغي أن يرشح، بين الحين والحين، بشحم القراءات النتن، وتقلّبات الفكر وانعطافاته، وهي لوالب تلتفّ بلا نهاية حول غاية الاشتراكية ومعنى الحياة في المجتمع، فتفقدك الصواب وتضلّلك عبثاً. وحين أبلغ الرفاق اميلا أن عليها أن تغيِّر قريباً طراز حياتها، أطلقت لفرحتها العنان، وسرعان ما راحت ترهقني بالأسئلة عن البرنامج ومحتوى الدروس. وكان لا بدّ للمسكينة أن تكفكف من ذلك حين رأت الحماس الضعيف الذي باشرت به علاج القضاء على التسمّم.

كان شغفي الغبيّ بالسلاح قد غادرني منذ وقت طويل. ولكني لم أكن أنفر من استعماله: كنت أستسلم لذلك. لنقل إني كنت أحسن استعماله. أما هي فلا- أو فقط من أجل الردع. وقد استعملت ذات يوم غدّارة، والغدّارة- وهي م ٢ اميركية- استعملتني لتقوم بما تقوم به الغدّارات حين تسدَد فوهاتها على بعد خمسة وعشرين متراً إلى مجهولٍ لا يراك. كان ذلك قبل خمسة أعوام عند طرف غابة تلك «الحالة من الحرب الداخلية» كما يقول القانونيّون المزيّنون بشرائط الذين يحرّرون المراسيم، في ذلك البلد، حين كنّا نرى النصرَ في متناول البندقية. ليس في الحرب جريمة قتل، ولكن ليس أشبه بالاغتيال بعدُ من كمين أوّل. في الوقت الذي ليس العدوّ فيه بعدُ إلاّ لباساً عسكرياً مجرّداً، شبحاً مخضرّاً يمشي عكس التيّار، قدماه في الماء، وسط مَفْرج بين جبلين. أجل، كنت قد رأيت ذات يوم، وأنا مشدوه بسماع الانفجار على هذا القرب الشديد، وما تزال السبّابة متحيّرة على الزناد- رأيت بين الأشجار غريباً يسقط في خطّ تسديدي. فتى بلا وجه ما كان لي أيّ حقّ في احتقاره. أو بالأحرى: ما كنت أستطيع أن أحقد عليه إلاّ إذا فكرت وحاكمت. ولم تكن لي في ذلك رغبة والأسوأ من ذلك، في نهاية النهايات: أن أذهب لألتقط، أمام الذين كانوا لا يزالون أحياء، وأذرعتهم في الهواء، ذلك الجسدَ الذي كانت تهزّه الشهقات. والتقط أيضاً، بالإضافة إلى بندقيته وأمشاطها، حذاءه وكيسه وحمالته. ليس من اليسير انتزاع حذاء من جثّة. إن حركات السالبين، في تلك اللحظات، هي في مثل تصلّب حركات المسلوبين.

كنت، بالإجمال، قد أكلت حقدي قبل أن ينضج. ولم يكن مذاقه جيّداً. أما اميلاّ فقد كانت تُنْضج الأمور. وذلك أحكم. إن الحَبّ أثمن من أن يُحصد بخفّة. إن الحقد يدفّيء قلوب المتوحدين ويصنع من تضحيتهم قرباناً خافقاً كفعل حبّ. فإذا غاب، أصبحت المعركة حساباً، وأصبحت الحميّة غليان رأس. إن طلقات الإرهابيين الناريّة هي بالنسبة لطلقات الثوريين

بمثابة الاستمناء بالنسبة للجماع. ولقد كانت ايميلاّ، تحت جلْد المشغوفين البارد، تنتظر الصيف، مغلقة الفم، وتنتظر لحظة أن تحبّ حبّاً حقيقياً.

من أين تراها كانت تستمدّ هذه الطاقة المركزة، هذا الشغف ذا الشحنة المفرّغة؟ أيّ دم سلفيّ كان عليها أن تثأرُ له؟ عن أيّ «اتاهويالبا» خانه «الاسبانيّ» الملتحي ففُسخ بين أربعة جياد أمام شعبه المتجمّع، وعن أيّ الملايين من الأجداد الذين التهمتهم أحشاء مناجم «بوتوزي»، وعن أيّ «توباك أمارو» منزوع اللسان كانت مسؤولة؟ إن القسوة لا تُرتجل بين ليلة وضحاها. وإنما تنطلق البنادق وحدها، بأيّ ثمن، عندما يأتي البارود من أعماق العصور. إن هناك قضية وأملاً يُعتنقان. إن بإمكان المرء أن يرافق لحظةً شعباً يثور.. أما هذا الجنس البرونزي ذو الظلال العريقة في القدم، فكيف أمكن لإيميلاّ أن تتزوّجه؟ إن لم يكن في عُرسٍ صوفيّ أكثر مما هو جسديّ؟ إن هناك فرقاً كبيراً بين «العذراء» الساذجة التي تُرى طوال دروب النمسا الصغيرة، مرسومةً على خشب الكنائس الأبيض، وبين التمثال المفخّم الذي يسحق، في الزياحات الهندية، أكتاف الرجال الذين يرتدون البونشو[1]، تمثال من كتلة حجر واحدة، مبرّج بصورة العذراء...

إن أحقادها ومحبّاتها لم يكن ممكناً أن تزدهر إلاّ بقوة القبضة. ما أمكن للإرادة أن تحل محلّ ذاكرة الأجسام... والسرّ الذي كنت أسيء شرحه لم يكن هو التزامها بقدر ما كان تصلّبها وعنادها. إن الجميع يلتزمون في العشرين من عمرهم قضية تتجاوزهم ويواجهون، مرة على الأقل في حياتهم، مجازفة كبيرة. أما أن يشيخ المرء وهو مضطلع، أن يعيش المجازفة القصوى على مسافة طويلة- فتلك قضية أخرى كلّياً. لم تكن ايميلاّ في العشرين من عمرها بعدُ. فإذا إذن؟ متعصّبة؟ لا: لم تكن مسكونة بفكرة. كانت أقلّ من ذلك وأفضل: يُعتمد عليها لأنها أمينة وفيّة. أشدّ ذكاءً من أن تعتمد على الأفكار: فليس للنظريات نظر. إن المرء لا يمكن أن يكون وفيّاً إلاّ لوجه- ولفكرة، على الأكثر- إلاّ عبر كائن من لحم ودم. وبالمصادفة- وعن طريق راوول- عرفت الاسم الحربيّ لوفائها. كانت تُسمّى «إنتي» الذي كان هو نفسه الساعد الأيمن لتشي الذي كان كارلوس ساعده الأيسر، منذ وقت طويل. سلالةٌ لا تُقاوم من المضحّى بهم... وهي التي آوت «انتي» في لاباز، حتى عشية اغتياله. ما الذي كان قد حدث بينهما؟ لست أدري. ولكنه كان قد مضى ذات مساء إلى مخبأ مجهول- «ليحرّرها من حضوره» كما قال لها وهو يمضي. وبعد يومين، عُثر على جثته في إحدى الضواحي، وحيداً في غرفة بلا ماء ذات جدران من الجصّ العاري، مبقور الصدر. وثقب صغير أحمر في صدغه. ولم يسبق لها أن قالت لي أيّ شيء عن هذه الحادثة، وأنا نفسي لم أعد أفكر بذلك قط. وهي أيضاً، بلا ريب.

كان لنا ما يشغلنا أفضل من التفكير. كان أمامنا، بين الثامنة والعاشرة، «توثيق»: أوراق مزوّرة، طوابع، أختام. ومن العاشرة إلى الثانية عشرة، اتصالات ومخابرات: راديو، شفرة، مورس. وعند الظهر، غداء الجندي العاديّ، على صينية من زنك. قيلولة حتى الساعة الثانية. وبعد الظهر، أعمال تطبيقية. من الثانية حتى الرابعة: متفجّرات وألغام. من الرابعة حتى السادسة: قنابل، بازوكا ورمي مختلف. من السادسة حتى السابعة: تفكيك الأسلحة المستعملة وتنظيفها. الساعة السابعة: حمّام وارتداء الثياب والعودة إلى المدينة. كانت السعادة لنا من الصباح حتى المساء.

أقصد: مزيّة جوٍّ على الجلْد، تلك الخفّة الهوائية الخاصّة بسحر الأصباح، حين لا يُثقُل شيء ولا يَصْمدُ، وحين يلعب المرء مع حياته بالدولاب، لأن جوف الهواء ورديّ، ولأنه لم ينم نوماً كافياً. إن المستقبل يجري بخطّ مستقيم، على عجلة حُرّة، والأرصفة مقفرة، والأعداء ينامون في أسرّتهم. وقد استمرّت هذه الساعة الخادعة لنا أكثر من شهر. لقد غرزنا اللامبالاة في الجسم بقسوة. بضربات العصا، بالسير المرهق، بالأكياس على الظهر مملوءة بالحجارة، حتى نكاد نلامس الإغماء. السعادة في فوهة الأستون، سراب الزرقة السرمديّ. أكانت ايميلاّ ترسم خططها بشكل واضح ومنتظم، كما يتعلّم المرء التسديد؟ إن خطوط التسديد هي كلّها مستقيمة، من أجل هذا يكثر عدد الرصاصات الضائعة. لا يربح الكثير إلاّ من عمد إلى المواربة.

ولكن المرء يصاب أحياناً بتلك الضروب من النسيان. وقد كان نسياننا ذلك من طراز نضالي، متحزّب. كانت كل حركة من حركاتنا صرخة كشفيّة «أوهيه، أيها الأصدقاء، الطريق سالكة ومستقيمة، على مدى النظر! فلننطلق!» ومن جميع الجهات، كانت الصحراء. ليس ثمة أصدقاء ليسمعونا. كانت عزلتنا قاسية، وخروجنا محدوداً: سبب أولى لطلب النجدة. ولست آسفاً على هذه العودة إلى الشباب التي تذوّقناها معاً كقعر زجاجة غير مأمول. غير أننا لم نكن بعد متظرّفين. كنا نعرف جيداً أن لكل حركة عواقب، ولكل كلمة وزناً، وأن دخول السنّ الراشدة ليس هو امتحان اختبار، وإنما هو امتحان جسديّ. ولقد كنّا قدّمناه، هي وأنا، في تاريخين مختلفين. إن الشبّان يحوّلون رغباتهم إلى استيهامات، لأنه ليس لهم ثأرٌ يأخذون به: إنهم يستطيعون أن يناموا إلى الضحى. أما نحن، فقد كانت لنا حسابات نُصفيّها بأقصى السرعة. والتفكير في المبارزات القادمة يمنح النفس كآبة. واستعداداتها تجعل المرء دقيقاً وواضحاً. إنه لا يستطيع أن يشخص بنظره كالأبله حين يكون العدوّ مواجهاً له. كنّا ننتصب واقفين عند الفجر، واعيين أن الخبز والورود لن تُقدَّم لنا مساءً على صينية، بالمجان، وأن المرء لا يستطيع أن يعرّض جسمه للبرودة والخداع من غير

(١) معطف في اميركا الجنوبية مصنوع من غطاء مثقوب الوسط لإخراج الرأس منه (هـ.م.).

أن ينال عقابه. إن الغضب وتعلُّم التقنيّات الدقيقة يطبع الأحلام بسرعة شديدة. كنّا نحلم مُطْلَقيْ العنان، على حصان مُحتدم.

ميقات عسكريّ. في الساعة السادسة تماماً من الصباح، كانت سيارة جيب عسكرية تعبر حاجز البستان، ولم أكن أغادر، بلا عزاء، مقرّ ذلك العظيم المجنون الذي كانوا قد أنزلوني فيه: قصر فيكتوري قوطيّ، ثمرة تزاوج خيالٍ مريض وازدهار سكّريّ مفاجيء في مطلع القرن، مجلوب دون ريب كما هو من اسكتلندة بالباخرة. كلّ ذلك وسط حديقة مزروعة بخضير محلوق تنبثق فيه الخبيّزةُ وافرة، والعندم الهنديّ والجهنّميّات. كنت أضع يدي بحرص على هذا القصر الفارغ الذي كان يرنّ بالأصداء من أجل رجل واحد، ولكنه كان يقي من السائلين والمزعجين. وبعد ذلك، كان السائق يمرّ فيأخذ ايميلا من فندقها. كانت تبدو لنا من بعيد مستقيمة، في المكان نفسه دائماً، عند زاوية الشارع المقفر. وكنت في كل مرة أتظاهر بالانحناء عند الباب لأترك لها المقعد الأمامي، فكانت ترفض عرضي بحركة صغيرة من يدها وتجلس على أرجوحة المؤخّرة، تاركة للرجلين المقعدين المحشوّين. وعلى زاوية شفتها بسمة لامبالية.

كان الهواء يَطفو فوق المدينة المفتوحة كقماشة وهميّة. ليْلك لا مسؤول، ملتفّ. ولم نكن نتكلّم قطّ، لأن لدى كل منا عدداً مفرطاً من الأسئلة يطرحها على الآخر، وأمسية الأمس، وأحلام الليل. وعلى الدرب الذي يحاذي البحر، كانت الريح تزيل تجعيد وجهينا. كان مغروران يجيلان، في وعورة التلال ذات النخيل، كبرياءَ قادةٍ أرقين- كبرياء أولئك الذين يقومون بالتفتيش على المتاريس بينما يشخر البورجوازيون وينخرون. ربما كان العدوّ، همّنا الأوّل، أقلّ إرهاقاً لنا من تلك النشوة الفائقة الشفافية التي يمنحها الشعور بأن يكون المرء مزوّداً بيقظة مقدّسة، على غير علمٍ من الجيران. وأعترف بأني استسلمت طويلاً لغرور الصباح المبكر. إن إنساناً يسبق بساعتين نهار معاصريه يعتقد بأيسر مما يعتقد الآخرون أنّه مكلّف بمهمّة غير عادية. وأنا لا أؤمن بعدُ بالمخلّصين، وأقلّ من ذلك بالمهمّات الجسام، ولكنني لن أكفّ قطّ عن الإيمان بالصباح.

كانت هناك أيضاً سعادة المساء، حين كان يُعاد إلى منزل المدنيّين جسمٌ سرّيّ، مجيد، كانت التوصيات والكدمات في الكتف تُفتّحه على ممرّ الأيام. كنّا مغمورين بتلك الحياة المخطّطة، المليئة بالأوامر والضغوط، على إيقاع محدّد ومفروض من الآخرين. بلا أوقات ميتة، ما عدا الوقت الذي كان فيه سعيرُ الظهر يضع على الأصداغ محاجم القيلولة. قادةٌ خاضعون على نحوٍ لذيذ، متطوّعون معبّأون كالساعات المنبّهة. كنت أتشمّس في كسل وأمثّل دور المنهمكين في الأعمال فيما كنت أقوم بالعَزْل داخلياً. إن في هذا الضرب من التنسّك هدهدة، وفي استنفاد المرء قواه على نحوٍ منظّم أفيون ارستقراطيّ يعدل كلّ أفيون آخر. وليس أكثر تنشيطاً للذهن من تلك الأمكنة التي ليس للمرء فيها أن يفكّر بما يفعل أو بما يقول، بل عليه أن يتعلّم كيف يحارب أو يتلو القدّاس أو يقفز من عل. إذ ذاك، في ذلك الحَدَر ذي الأظافر الواضحة والشعر القصير، والقفاز السافيّ والتفكير القائم على الحاكيات الصوتيّة، يملك المرء أخيراً كل المجال للنزوع نحو الجوهريّ.

ولما كنت أجهل ممّ هو مصنوعٌ مستقبلنا، فقد كان الجوهريّ هو هذا النزوع نفسه، هذا الخضوع لهدف مجهول. أن نصبح «عمليّاتيين»[1] كان ذلك يشغلنا بما فيه الكفاية حتى لا نضيف إلى ذلك الانشغال بالعمليات التي كنّا نرصد لها أنفسنا. لقد كنت أتشرّف دائماً بأن أضحّي بالميتافيزيقا لصالح الرياضيات، ولم يكن الأمر لدى ايميلا تضحية، بحيث أنه لم يكن ثمة أيضاً ما يطرح علينا سؤالاً، لأننا لم نكن نملك جواباً على شيْء. كان ثمة، في أكشاك المحطّات، فدائيون يدرّبهم مدرّبون كلّيّو القدرة على خطف علماء ذرّة في الغرب. وفي المسرح، ما فتيء ثرثارون منذ قرون يتناقشون إذا كانت الغاية تبرّر الواسطة، وإذا كان الأفضل أن يكون للمرء أيدٍ قذرة أو لا تكون له أيد على الإطلاق. أما في نظرنا، فقد كانت الوسائل تبرّر أية غاية- وتنتهي هنا المناقشة. وقد كانت وسائلنا تُسمّى: حصر الهواء في الرئتين، مراقبة الفخذين، تثبُّت المعصم (من أجل المسدس)، فقرات ظهريّة وثيقة (من أجل الرمي المضطجع) وكانت هذه وسائل تكفي لسعادتنا. أن يعطي المرء نفسه لقضية، هو أولاً أن يُشبع حدوده، أن يستمتع بنفسه. وتكون غايتنا الوحيدة آنذاك: أن نتخلّص من الزوائد لنستحقّ، إذا حان الوقت، نهاية خاطفة، بلا بُقع ولا رماد. إن أحذق الحِذْق هو أن يستعمل المرء حياته كما يستعمل خرطوشة حربيّة.. أن يستطيع يوماً أن يقذف الرجل الذي شاخ كما يقذف غلافاً مستعملاً رثّاً، أن يثقب مرماه ويختفي.

أودّ أن أنسى بعض الظلال على اللوحة. بعض أمسيات يتقشّر فيها طلاء هذه الحياة المفرطة البساطة. بعض لهفات كانت تستولي علينا في طريق العودة، وطبلةُ آذاننا ما تزال ممزّقة بجلساتنا الطويلة في الرمي. كان ذلك البخار الذي يُصعّده الجون أمامنا، وذلك العطر الجمريّ الذي يطفو على المدينة، وصخبُ النيون على واجهات جبين البحر - كل ذلك كان يبعث فينا مزاج الشمبانيا، مع توثبات فَرِحة كان من المستحيل كبحها. كنت أرى عيني ايميلا تلتمعان، كما لو أنها استردّت أنوثتها من غرفة الملابس، خفية. كان الأمريكون مفرط الجمال أن يُشتّي المرء طوال الصيف، وأن تلتهم حرارة النهار حتى المساء أجساماً مجلّدة، ذات اندفاعات مكسورة، وحركات جافّة. كنت أحبّ هذا التَفَه النشائيّ بيننا. ولكن كيف السبيل لمقاومة مدينة كبيرة حين يهبط الليل، ويصعد النَّسغُ في الأعضاء، وينمّل الجلد؟ ماذا يصنع المرء بالرغبات التي يراكمها الاحتقار في صمت، وبتلك الشراهة كلّها التي كان تحفظُنا قد غذّاها؟ كنت أنا أختفي في المدينة حيث كانت لي بعض أشغالي، كجميع

الناس، ووداعاً يا ميمي، إلى الغد! وكنت أوثر، وأنا أحدس بالنتيجة، أن أتركها في الطريق، أن أدَعَها لمصيرها كأميرة صغيرة جذلة في موكب راقص.

كان التهتُّك، بالنسبة إليها، أصعب بلوغاً منه بالنسبة إليّ. كانت تعود إلى فندقها فتصعد إلى غرفتها لتغيّر على عجل خِرقها العسكرية وخُرجها الكاكي بلباسٍ مناسب: خفّ من جلد، بنطال- تنوّرة، بلازر أحمر ذو طيّات عريضة. كانت تربط شعرها بشكل ثُنّة[1]، وتلفُّه دُوَيْرات على الأذنين، وكان خدّاها مطلّسيْن بشكل خفيف، وعلى جفنيها ظلّ خفيّ: أناقة رياضيّة، متكلّفة بدقّة، بلا ثيابٍ كاشفة ولا تَطْرية بكل معنى الكلمة. لم تكن ياقتها المقوّرة، ولا منديل رقبتها الحريريّ المعقود على طريقة رعاة البقر، ولا نظرتها الأكثر عمقاً تكفي لإخفاء هيئة سوقيّة عليها، بل مظاهر آنسة أكثر غموضاً. ازدواج شخصية مذهل كان يتنبّأ جيّداً بقابليّاتها السرّيّة ويمكن أن يفاجيء الناس. ذلك أن مراهقة الخمسينات كانت مستعدّة لكلّ شيء. وايميلاّ الماجنة المتعجرفة بعض الشيء، المعتدلة في مجونها، لم تكن أقلّ ممارسةً لفجورٍ مكشوف، بلا ندم.

لم يكن لها أن تضع نفسها موضع المطارَدَة. لم تكن تفتقر إلى المرشّحين الذين كانوا يضعون عند قدميها جميع علامات السلطة والرجولة، ويتنافسون في التبختر. ولكن الإثم، في الوسط اللاتيني، يُفسد الجوّ، ويدبّق الأنظار، ويزحف تحت الطاولة. والرجال، في الأرض الاسبانية، لا ينظرون إلى النساء في عيونهنّ. أما هي، فقد كانت، على العكس، تفعل ذلك. كان انعدام التوازن هذا يغيظها. كان يجعل منها امرأة شريرة لأن الأسلحة لم تكن متكافئة. ومن غير أن نتكلّم عن رفاق المنظمة الذين كانوا يخجلون من أجلها ويديرون رؤوسهم (والحقيقة أننا ربما كنّا مسرورين أن نعاني: فإن تنحطّ هكذا بين الحين والحين، كان ذلك يكسبنا بعض المقام تجاهها) كان السياسيون والعسكريون الذين يعرفون من هي يدعونها أحياناً إلى العشاء، ولكنهم كانوا يسعون إلى منفعتهم بشكل موارب، فيقدّمون رجْلاً ليؤخّروا يداً، مكثّفين الضيق بدل أن يبدّدوه. ومهما يكن من أمر، فقد كان ذلك بلا أمل بالنسبة إليهم. ذلك أن ايميلاّ الأميرة لم تكن تستطيع أن تنام بحشمة إلاّ مع سائقها. خاصّة في هذه البلدان التي حين تقول امرأة فيها « نعم » لرجل، فليست هي موسماً فحسب، بل في وضع المحميّة المنتظرة والخاضعة. لم تكن القيم الكاستيلانية قِيمَها، وقل ما كانت « هيبتها » تهمُّها. ولكنها لم تكن تحبّ أن تنتظر، ولا أن تعترف بالضعف. لهذا تبنّت عادةً سليمة، وكابتةً على مرّ الأيام، أن تختار شركاءها من خارج وسطها: صحيح أنها كانت متقلّبة، ولكنها موسوسة، ولم تكن تخلط بين الأصدقاء والعشّاق، بين حياتها النضالية وحياتها الخاصّة. وقد قالت لي يوماً، بعد ما أشرت إلى مجانات رفيقة كانت هي أيضاً تثير فضيحة في وسطنا الصغير: « ماذا تريد، أنا كذلك لم أستطع قطّ أن أكون مناضلة وامرأة في وقت واحد. من أجل ذلك، أُناوب » وأنا أعرف الأغنية جيّداً. وإذن، فقد كنّا اثنين نزدوج، نتفاهم وكلانا يدير ظهره للآخر. كانت حين تخرج، تفعل ذلك من غير أن يراها أحد، مع موسيقيين زنوج- عازفي التومباس أو الساكسو- أو مع مغنّ بوهيميّ بعض الشيء، أو حتى مع جنودٍ بلباس مدنيّ.

وقد التقينا ذات سبت، مصادفة، في مرقص شعبي حيث كانت مغنيّة زنجية، سماوية ببساطة- ذات وَرِكين متموّجين، وفم رشّاف، وعينين رُمْحيَّتيْن- تقبض على عالمها من مَعدته بصوت شيطانيّ يصعد من بطنها: حيوانياً، خشناً، مطوّقاً. وكانت ايميلاّ ترقص، متنكّرة بلباس « كارمن »، بصدارٍ حِمّصيّ، وتنوّرة داخلية كبيرة ذات دوائر وشَعر مرفوع فوق الأذنين بملقط. وجلسنا نحن الأربعة إلى الطاولة نفسها: هي، ورجل قويّ حالم بعض الشيء له هيئة مهرّج في وجهٍ تبغيّ اللون، وأنا، وخلاسيّة تلتزم صمتاً فاتناً لم أكن أشكو منه. كل رجل مع صاحبته. إلاّ بمناسبة رقصة دعتني هي إليها، وما أزال أذكر اللازمة. وقد همست في أذني « إنها استهلاليّتي، هل عرفتها؟ » وكيف تراني لا أعرفها وهي التي كانت تدمدم بها من غـــير انقطـــاع في معسكر التدريـــب، وسط المحاضرات والانفجارات.

أنت ترحل لأني أريدك أن ترحل
في الساعة التي أريد أن أحتفظ بك
أنا أعرف أنك بحاجةٍ إلى حناني
لأنني، شئت ذلك أم أبيت، حبيبتك

إن الكلمات، من غير الإيقاع، بليدة، ولكن الموسيقى تَعِدُ بلذائذ الجحيم وتفي بوعدها، وقد استطعت أن أؤكد لها:

من أجل ذلك، سأرتدُّ على أعقابي
وسأمضي مع الشمس، حين يموت الأصيل

وفي النهاية، قلت لها، وقد استرخيت بتأثير شراب الخِطْميّ حتى كدت أفقد توازني على الحلبة:

- إنني حقاً معك، كما لو كنت أرقص مع أختي!
- كيف تعرف، ما دمت قد قلت لي إنك لم تكن لك أخت؟
- بالضبط، أنا أكتشف ذلك.
- إذا كنتَ، بالإجمال، مخطئاً، فلن تكون لك أية وسيلة لتعرف.

ولما كنت غير أهل للإيمان بالقدر، فإني لم أؤمن قط بأن ارتكاب المحارم أمرٌ لا مفرّ منه. ومن غير أن نستدعي ذلك، أبعدناه بتصميم، لصالح دورةٍ جديدة من « الدايكيرسي »، وترك أحدنا الآخر كأفضل صديقين في العالم. وأنا أعرف قواعد اللياقة. من أجل ذلك، امتنعت صباح الاثنين عن أن أطرح عليها أسئلة عما أمكن أن يحدث بعد ذلك. ليس الناس من خشب. حتى بين الأخ والأخت.

وكنت مفرط السرور أن أجد ثانية مناضلة الأسبوع: مستردّةً انتصابها، نقيّة ونظيفة. بوجهها المُغفل، بلا آثارٍ ولا

قناع. ولقد آثرت دائماً، بيننا، هذا التواطؤ الخشن بعض الشيء، على تواطؤ أمسيات السبت. كان التدريب يميل إلى نهايته: وكانت قد تكوّنت عاداتنا. ومنها عادة الصمت. ليس من كلمة واحدة طوال الرحلة.

وحين وصلنا إلى الساحة، أخرجت من جيبها برقية إحدى الوكالات تحمل تاريخ عشية الأمس.

- خُذْ، الأفضل أن تعرف ذلك على الفور.

في لاباز، كان مستودع أسلحة قد سقط لنا في العشية، خلال غارة كبيرة. ولم يكن هو الأوّل، فقبل ذلك بأسبوع، عرف مخبأ آخر المصير نفسه. وقد حملني هذا على التذمُّر:

- أقسم أن الشبكة سوف تصبح أُلهيةً سياحية! سننظّم رحال الشرطة زيارة في السيارة كل أحد...

كانت تقيسني بنظرها، ويداها على خاصرتيها، ساخرة:

- هل نهمل الأمر إذن، يأساً من النجاح؟

- لقد ضجرتُ من الأخطاء، كما تقولين. الأخطاء نفسها. إننا لا نتعلّم شيئاً.

- الأخطاء، هي مشكلتنا جميعاً. وأنت مسؤول عنها بقدر مسؤولية الجميع.

واتجهت بخطى بطيئة نحو مستودع الأسلحة، ولكنها استدارت فجأة لتقول:

- بالتأكيد. ليس من أحد يُجبرك. إنك تفعل ما تشاء... ولكني أعتقد أنّ عليك واجبات، أليس كذلك، وماضيك هو ما هو؟

- تجاه من؟ تجاه أصدقاء؟

- تجاه أعداء أيضاً. إنهم يخافونك. فلا تخيّبهم أكثر مما ينبغي.

- يكفيني الرفاق.

- بالضبط لا! أنت لا تستطيع أن تقول: الرفاق وأنا. لا بدّ لك من أن تكتفي بالقول: «نحن». يجب أن يتقمّص أحدنا المنظّمة كلّياً. إلى حدّ أن يفقد ماهيّته. عند اللزوم. أن يصبح كلّ عامل، كل عاطل عن العمل، كلّ مقتول بالبندقية. أتستطيع أن تفهم هذا؟

- ربما لا، إلى هذا الحدّ، أيتها الأخت الصغيرة. ولكن لم يسبق لي قطّ أن غسلت الثياب القذرة إلاّ داخل الأسرة.

- لا تنس أن المرء لا يستطيع أن تكون له عدّة أُسر. أسرة واحدة، وليس له من منفذ ليترك في مكان آخر روحه أو ماله. هذا هو الإكداح[1]، أكداح الملاكات، يا بوريس - وتهجّت واحداً واحداً مقاطع هذه الكلمة الأمر التي أصبحت لنا مفتاحاً عمومياً منذ فترة - هذا، وليس شيئاً آخر.

- تجعلينني أضحك، يا ميمي. إن المرء منا يغطّي يديه بالشحم الأسود طوال النهار، ولكنه مساءً يجد نفسه في قصر. إنه يكدح طوال الأسبوع، ولكنه يذهب في نهاية الأسبوع ليتسمَّر على الشاطيء.

- اطمئن يا صاحبي. عمّا قليلَ سنرحل. فلماذا تعتقد أننا نرهق أنفسنا هنا بصلْي البندقية وتفريغها؟

قالت ذلك وهي تشير إلى صفّ كامل من الأسلحة التي كان علينا أن نستعملها في النهار، زهاء عشرين بندقية ومسدساً ورشاشاً كانت مصفوفة على المسند.

كانت تكرّس، في هذه الأيام الأخيرة، للرمي على سيل الحصر. مع ذخائر كثيرة. وكانت تُفرّغ منها صناديق كاملة. وفي ذلك اليوم، كان خصامنا قد أسخطني، فتحوّلت التمارين إلى مبارزة ثنائية. ولم أكن أصوّب تصويباً رديئاً. ولا هي. كنّا نعدّ النقاط، وعددنا بحذر. كنّا متوتّرين، مسودّين بالزيت والعرق، تحت سماء مبيضّة بالقيظ الشديد، تصطفق فوق رأسينا كأنها قماشة. وقد ربحت بالمسدّس الرشاش، على مسافة خمسين متراً. وانتصرت بالمسدّس، على مسافة خمسة وعشرين متراً، لا سيما وأن مسدّس الكولت ٤٥ كان يقفز في يدها. وتحدّيتها على بعد ثلاثمئة متر بـ «الأك ٤٧» البندقية الآلية الشهيرة بأخمصها الخشبي ومقبضها المسدس. ولم تكن هناك حاجة لمنظار مقرّب. كان الهدف إذا أُصيب، أصدى الصنج في الجانب الآخر من التلّ. وقد ربحت بفارق قليل، ضربة بعد ضربة. أما بالرشق، فلم تكن هناك مشكلة. لقد سَلِمَ الشرف.

فيما بعد، عاد المزاج الطيّب، مع نسمة رطبة كانت تصعد من البحر. وانضمّ إلينا فيديل، الذي كان يمرّ من هناك، مع حاشيته. واتخذوا الوضع العسكري، ففُتح صندوق من الخرطوش ذي الرصاص المزرقّ - الخطّاط - فكان المهرجان: الجميع مصطفّون، رميٌ متشابك على صنج الجار، بأسلحة مختلطة. وكانت الخطوط الفوسفورية، في المساء البنفسجيّ، تتلامس، أو تتقاطع أو تتباعد في أسهم نارية كان بوسع كلّ منا، بمجرّد حركة من معصمه، أن يشكّل أو يفكّ عَرْبَساتها. وعلى ضوء هذه الباقة النهائية، غادرنا فردوسنا وسط صخب مُصمّ من الصفير والانفجارات والمُصلصلات والشتائم.

هنّأ القائد العامّ ايميلا على دقّتها وبراعتها في الرمي. فاحمرّت اعتزازاً وذراعاها تتخطّران: كان تراجُع الأخامص قد جعل كتفها مزرقّاً كل الازرقاق. ثم ذهب الجميع يشربون على السطيحة بيرة بالعلب، ويتبادلون بعض المُلَح وهم يتأرجحون في الكراسي الهزّازة. وذكّرني هذا الاحتفال الصغير المرتجل بنهاية العطلات الكبرى. كأنّه مُعترِضة تنغلق بهدوء، وبعدها لا يمكن إلاّ أن تبدأ من جديد صلاة الشقاء. وحين قلت لايميلاّ «إلى اللقاء»، عند زاوية الفندق، داخلني شعورٌ أنّي أودّع شخصاً لم يتّفق لي حتى أن ألقاه. وأننا كنّا، نحن الاثنين، قد فوّتنا الوقت.

★ ★ ★

(١) دوي علاقة بالعمليات الحربيّة (هـ.م).

(١) طريقة جمع الشعر المعروفة بذنب الخيل (هـ.م)

كان كل منا يجد نفسه من جديد في زاويته بلا موعد، عاطلاً. وانقضت أيامٌ لم أرها فيها. أتراها كانت تقاطعني؟ ووجدتني، بعد ظهر أحد الأيام، أتسكّع في الفندق. وإذ مررت بغرفتها، وكنت قد أخذت عادةً استوائية في النزول ارتجالاً على الناس، طرقت بابها. من أجل لا شيء. لكي أقول صباح الخير وإلى اللقاء. ليس من جواب. وكنت أهمّ بالذهاب حين أثار شيء ما ظنوني، نوع من الأنين، بين النحيب والنشق. وانفتح الباب من تلقاء نفسه تقريباً.

بعد فوات الأوان. كنت قد رأيت، وكانت قد رأتني. كانت جالسةً على الأرض، مُسندة ظهرها إلى سريرها المدعوك، منهمرة الشعر. وكانت تبكي. وأومأت برأسها نفياً لتسدّ عليّ المرور. زهرة دَلبوث ذابلة كان الحزن قد حفر تجاعيدها ودارتي عينيها.

- ماذا هناك، يا ميمي؟

تمتمت وهي تفرك عينيها وغصّات صغيرة تهزّها:

- لا شيء. أعذرني.

- ماذا تفعلين هنا؟

- لا شيء...

- لماذا تبكين؟

- لا أبكي... كنت فقط أنظر بعض صورٍ قديمة... وكنت أتساءل ما الذي أُلت إليه الآن... أتفهم؟..

وأرتني وهي محمرّة خجلاً مجموعة من الصور الحائلة بعض الشيء مبسوطة أمامها: «حين يأخذني الحنين، أغلق الباب وتخفّى. وما كان ينبغي لي أن أترك الباب مفتوحاً. هذا كلّ شيء.»

كانت تتمتم: ضدّ ذاتها، وقد كنت أودّ أن أردّها إلى وجه ذاتها. وكنت ما أزال أكثر ارتباكاً منها أن أرى هكذا يقيني الكلّيّ، آسرتي، فارسي من غير لأمته، متربّعةً عارية، مجروحة، تحت رحمتي. وجلستُ، فرسمتْ على شفتيها بسمة، وأشرت إلى صورة من الصور:

- مَنْ هذا الشيخ؟

- أبي.

- هل هو في صحّة جيدة؟

- أظنّ أن نعم. ليس لديّ أخبار.

- إلا تَرَيْنهُ بعد؟

- هو الذي لا يريد أن يراني بعد.. منذ أن عرف أني كنت أعمل لصالح المنظّمة..

- وهذه الصورة. أهو دبّ صغير أم قرد، هذا الذي تحملينه بين ذراعيك؟

- لا أذكر. هذا حين كنّا تكتشف معاً «البيني».

- وهذه.. هل أنت أمام مدرسة تُبنى، أم ماذا؟

- لا، بل ميتم... مع صديقة طبيبة، في لاباز، كنا قد حاولنا إنشاء مؤسسة للأطفال المتروكين.. وكانت الضرائب تجبى من نوادي الأغنياء... هذا سخيف، أليس كذلك؟ لاحظْ أنّ هذا قد خدم المنظّمة، فيما بعد..

- هل تحبين الأطفال؟

فأومأت برأسها إيجاباً.

- لماذا ليس لك أولاد؟

- فات الأوان. أشياء في البطن. أمر معقّد. لا أستطيع أن أشرح لك.

- هل يجعلك ذلك حزينة؟

- ايماءة خضوع، لا تكاد تُرى.

وظللنا نتحدث بصوت خافت عن أشياء الماضي.. ورويداً رويداً، كانت تستعيد هدوءها وتتدارك نفسها. وقالت لي أخيراً، رابطة الجأش:

- لا تذهب بك الظنون بعيداً. ليست لي مشكلات شخصيّة. ولو كان لي مشكلات، فلن يكون لهذا أيّ شأن. إن الثورة لا تُصنَع بالمشكلات الشخصيّة. أليس صحيحاً، أيّها السيّد؟

رنّ التلفون عند هذه اللحظة بعينها. كان كارلوس، من باريس. أبلغها أنه قادم بعد يومين، عن طريق مدريد. من كلّ بدّ، هذه المرّة. ولم تعد ميمي تجد كلماتها، وكانت عينها جافّة، تبعث الشرر. ثم تمتمت في السمّاعة:

- آن الأوان.. لقد طال الأمر.. أتعرف من يكون إلى جانبي؟ بوريس!

غمزتني بعينها، ثم وضعت يدها على السمّاعة، وكرّرت لي الجواب:

- لديه عمل، بوريس..

- ماذا؟

- ترجمة جديدة لدون كيشوت، بلغة كيشويا.. طبعة شعبية.. رواية مختصرة..

- لأيّ وقت؟ اسأليه.

- لا وقت بعد للضياع. يجب الإسراع. سنرحل على الفور..

لم أكن أعرف إن كانت تصيح فرحاً - أم لكي يمكن أن تُسمع. وحين أعادت السمّاعة:

- ومن يقوم بدور سانشو؟

أجابتني وهي تقهقه: - أنت بالتأكيد!

ومن غير أن تتوقّف طويلاً عند توزيع الأدوار:

- ترى أن الأمور تتحسّن، بمجرّد أن نتحدّث عن المستقبل.

والواقع أن رُكام الذاكرة كان قد جعلها تتعثّر، فكانت مخابرة كارلوس تكنس الدرب بلمحة عين. كان وجهها مُشعّاً.

- عِدْني بشيء، يا بوريس. لن تقول لأحد - وخاصّة لكارلوس - إنك رأيتني أنتحب.

- ولكن الدموع شيء رائع. إنّها تنظّف. أنظري إلى نفسك: لقد استعدت سحنتك، سحنة الصبيّة. لقد التقيت «ميمي» منهوكة، مصدوعة. وبعد ذلك بساعة، ها هي ذي بحالة جديدة.

- شكراً. هذا يقيم بيننا سرّاً آخر.

لم أفهم علام كانت تشكرني، ولا لماذا تشكرني أنا بالذات، ولكن حين خرجت من غرفتها كنت أنفخ صدري بخيلاء.

لست بقويّ الملاحظة، كدأبي دائماً..

* * *

أحدث اقتحام كارلوس، بعد ثمان وأربعين ساعة، أثراً أشبه بسكبة نفط على نارٍ هامدة. كان هو «دارتانيان» ناقصاً شاربين وتبجُّحاً. وما كاد يقفز من الطائرة أرضاً حتى أقبل يقيم في مقصورتي المتكلفة التي استيقظت، بين ليلة وضحاها، على فوضى أركان حرب عامّة. كانت لُقى جديدة حارّة بين شركاء متواطئين. وقد أضحكنا حتى البكاء القليلُ الذي رواه لنا عن البلد الذي قَدِمَ منه. أجل، «نحن»: كانت ايميلا، بناءً على طلب كارلوس، قد تركت الفندق على الفور، وانتقلت إلينا، في غرفة بالطابق الأوّل، مجاورةٍ لغرفته.

لم تدم الضحكات إلاّ فترة. كان لا بدّ من «التخطيط» - وبسرعة. وكان كارلوس يردّد، في كل مناسبة، «ليست هناك لحظة نضيعها»، كما لو أنه كان يريد أن يستدرك تأخُّره وسفراته العجيبة. «إن «الثورة» لا تنتظر، فهذه هي الفرصة وإلاّ ضاعت إلى الأبد..». وكانت قامته الطويلة التي كانت تذرع الغرف الفارغة كهبّات ريح تلذعنا بأكثر من رشقة شتائم. كان بارعاً في التحليل، عصبياً في العمل، فكان يبدو عجلاً، ولكن بلا خشونة. هكذا كان مخلوقاً: كانت محرّكاته تدور بأقصى سرعة. كان ينام خمس ساعات في الليلة، وينزل الدرج أربع أربع، ويتجاوز إشارات التوقُّف، وينظر إلى ساعته بلا انقطاع، ويقلب الأطباق على المائدة. وقد امتصَّنا هذا الهياج - حرفياً.

لم تكن نصائح الحذر والحصانة تنقصنا، وقد زارنا عدة مرّات أعلى سلطات البلد للاطلاع على مشاريعنا. وكان كارلوس يتجاوز جميع الاعتراضات، فكنت أتبعه على مضض. كنّا عصبيّين، نصغي من غير أن نأخذ وقتنا لسماع ما كان يُقال لنا. وقد جعلته رقّةُ ضيوفنا الذين لم تكن الحكمة تعوزهم وكانوا قد تعلّموا أن يستعجلوا على مَهَل - جعلته ينحني. كنّا بعد كل حساب وحدنا المسؤولين، حُرّين أن نتصرّف وفق هوانا. وسرّعنا استعدادات السفر.

خلال تلك اللقاءات الليلية الطويلة، كانت ايميلا سكرتيرة بسيطة تلتزم غرفتها، وكان النور يظلّ مضيئاً حتى ساعة متأخرة تحت بابها. وكنا نسمع طقطقة آلتها الكاتبة، ونلمحها أحياناً تذرع المطبخ بقدمين عاريتين، أرِقةً ومتكبِّرة. واثقة من نفسها، وقد زادت جمالاً بالتواطؤ الذي سرعان ما قام بينها وبين كارلوس. وكنت أحثّ خطوي حتى لا أُسبق، ولكن عبثاً: فقد كان ثلاثيُّنا أعرج. كانا يتحدّثان في البستان بين عيون أربع، ويتفاهمان إيماءً في جلسة المناقشات، وكانت الأروقة تنتعش ليلاً بالاصطفاقات الصامتة والأبواب المنغلقة خفيةً والنداءات المخنوقة.

ولكي نتصبَّر في انتظارنا، كنا نخرج أحياناً إلى الحقول المجاورة حتى نبلغ مربط خيل موقّتاً كنت أعرف مديره. لم يكن أحد منّا قد عرف مدرسة للفروسية، وكنا نمتطي بلا احتفال الجيادَ نصف المتوحّشة الشبيهة بافراس السهول الاميركية البرّيّة. كانت ضروباً من العدو السريع المتوثّب يكاد يقطع الأنفاس على طول الشواطىء المقفرة. كنّا ندفع المطايا بأقصى سرعتها في الأمواج، وكان الزبد يرشُّنا حتى الصدور. كنا نشتم ونسوط ونهمز، وكنا نمثّل «وسْترناً»[1] بالتسايف، وكنا نُتعب رئاتنا بالصراخ والهتاف. وكانت هذه السباقات التي لا هدف لها تعيد التحالف بيننا، نحن الثلاثة، الخليّين الفَرِحين ولكن المتعبين أيضاً الذين قوّست التشنُّجات سيقانهم.

وأخيراً، حان يوم الرحيل. مقصدنا: التشيلي. المِقْفزُ الأخير قبل الوثبة الخطرة. وكانت النوابض في كلّ منا مستعدّة للعمل(★).

* * * *

دار الآداب تقدم

مؤلفات الدكتورة

نوال السعداوي

- امراتان في امراة
- موت الرجل الوحيد على الارض
- امراة عند نقطة الصفر
- اغنية الاطفال الدائرية
- موت معالي الوزير سابقا
- الخيط وعين الحياة
- الغائب
- كانت هي الاضعف

(١) تحويل فئة من المنتجين المستقلّين إلى الوضع الكادح أو البروليتاري (هـ.م).

(١) فيلم شأ أولاً في امريكا يروي مغامرات الروّاد ورعاة البقر (هـ.م.).

(★) الفصل الأول من رواية «الثلج يشتعل» للكاتب الفرنسي رجيس دوبريه، ترجمة الدكتور سهيل ادريس، تصدر قريباً عن دار الآداب.